16

ما أكثر ما كان رمسفلد يقول لأركانه: "لا أعرف كم ستدوم، ولا أعرف كم ستكلف". في 2 نيسان/أبريل أرسل مذكرة من صفحة واحدة إلى وزراء الخدمة، رئيس هيئة الأركان المشتركة فايث، فرانكس وأناس مهمين آخرين في البنتاغون. طالب الجميع بدعم غارنر "كما ينبغي" وقال إن مهمة غارنر هي "المساعدة على خلق الشروط اللازمة للانتقال إلى الحكم الذاتي العراقي وانسحاب قوات التحالف بعد استكمال أغراضها العسكرية". في الكويت، حصل العقيد توم بالتازار من أركان غارنر على نسخة. كانت المذكرة قد كُتبت لمجرد عجز فريق غارنر عن تحقيق التعاون مع القيادات العسكرية. يا للغرابة! مدهش حقاً، قال العقيد نفسه. توقيع رئيس الجمهورية على توجيه الأمن القومي الرئاسي الصادر يوم 20 كانون الثاني/يناير الذي لا يقول، عملياً، سوى عبارة "ادعموهم" لا يكفي ولا يفي بالغرض بالنسبة إلى هؤلاء الشباب. لابد لنا من الحصول أيضاً على توقيع رمسفلد.

إضافةً إلى كونه رئيساً للمؤتمر الوطني العراقي، كان أحمد الجلبي رئيس جماعة عراقيين منفيين كانوا قد تلقوا بعض التدريب العسكري بإشراف الولايات المتحدة ورعيتها. غير أن كل شيء عن المجموعة العسكرية لم يكن إلا كلاماً فارغاً. إضافةً إلى عدم تدريب سوى أعداد قليلة تكون مسلحة وجاهزة، ثمة كان شجار حول تسمية المجموعة. ما لبثت عصبة الجلبي أن باتت تحمل العنوان البلاغي المميز التالي: **مناصلو العراق الحر الأحرار.**

مع حلول أوائل نيسان/أبريل، راح الجلبي يلح مطالباً بدخول العراق. على الرغم من دعم أوليائه نعمته في البنتاغون وواشنطن له، فإنه لم يبد ذا جدوى بنظر الجنرالات الأمريكيين في الشرق الأوسط. لعل آخر الأشياء المطلوبة كان متمثلاً بإنزال الجلبي مع جيشه الصغير فوق زحمة بؤرة العمليات الحربية، إلا أن ضغطاً للقيام بذلك تحديداً كان يُمارس.

أخيراً لان أبو زيد. قال لغارنر: "حسناً، دعنا نقحم ابن الكلب في الأمر وسوف نرى ما إذا كان يستطيع أن يفعل ما يظن الجميع أنه يستطيع فعله. أنا متأكد من أنه لن يستطيع".

قامت الولايات المتحدة بنقل الجلبي مع مناضلي العراق الحر الأحرار وآخرين من المرتبطين بالجلبي إلى الناصرية على متن إحدى طائرات النقل الأمريكية من طراز هيركوليس سي - 130 القادرة على الإقلاع والهبوط في أي مكان. ماركس العنكبوت كان هناك حين نزل الجلبي إلى الأرض. رأى أن زعيم المؤتمر الوطني العراقي كان يحاول تقليد عودة ماك آرثر إلى الفلبين. كان الجلبي يرتدي قميص رياضة أسود اللون وقبعة شبيهة بقبعات لاعبي البيزبول، ويقود مجموعة من أنصاره. إذن هؤلاء هم مناضلو العراق الحر الأحرار، قال ماركس لنفسه. "عاينوا حافظات نقودكم. إنها عصبة مريبة".

بدأت التقارير تتوالى عن قيام المناضلين الأحرار بأعمال الانتقام، السرقة والنهب.

ذات ليلة كان ماركس وضابط استخبارات آخر هو العقيد جون "جيك" جونز مستقلين سيارة همفي مكشوفة وسلاحاهما موجهان إلى الخارج، متسائلين عن احتمال الاشتباك مع عدو مجهول ما.

"خفف السرعة" قال جونز، حين رأى أربعة أو خمسة عراقيين ملتحين متحلقين حول نار على قارعة الطريق. كانوا يشوون حيواناً مخترقاً بسفود - خروفاً أو كلباً، ربما - ويرقصون حوله. بدوا كما لو كانوا يحششون، برأي الضابطين. بدا المشهد شبيهاً بمشاهد ملك الذباب.

نظر جونز وماركس إلى بعضهما وتوصلا إلى الاستنتاج نفسه وقالا بصوت واحد: "إنهم مناضلو العراق الحر الأحرار" قبل استعادة السرعة.

كان كرستوفر "ريان" هنري قد التحق بالعمل في شباط/فبراير مساعد وزير رئيس لشؤون التخطيط، بما جعله كبير نواب دوغ فايث. كانت لهنري هذا، وهو نقيب بحري متقاعد وموظف كبير سابق في مؤسسة سايك SAIC المتعاقدة مع الدفاع، علاقة فريدة مع وزير الدفاع. كانت زوجه ديلوني هنري، مساعدة رمسفلد وسكرتيرته الرئيسة الموثوقة، المرأة التي كانت تتولى نسخ ندف الثلج وحفظ الملفات. بقي رمسفلد مصراً على التحكم بالوزارات العراقية، وفي 6 نيسان/أبريل اتصل هنري بغارنر وجوده بقائمة الدفاع الجديدة.

علق غارنر: "عظيم يا ريان. متى ستصلون إلى هنا؟"

"حسناً، لا نعلم. بل ولم نبلغ بعضهم إلى الآن".

"لنكن منطقيين يا ريان. لن تستطيعوا إيصالهم في الوقت المناسب". كانت المعارك الرئسة موشكة على الانتهاء. القوات الأمريكية باتت قريبة من بغداد.

رد عليه هنري: "لا، سنبذل جهودنا القصوى".

كان غارنر وبيتس يعلمان أن المشكلة كانت موشكة على أن تبرز قريباً في بغداد. وكما كانا دائبين على القول منذ أشهر، فإن المسألة كان من شأنها أن تتمثل بمن سيكون المسؤول. خطرت لغارنر فكرة. قال لرمسفلد: "انقل جون أبي زيد إلى البلد ورفّعه". بوصفه نائباً لفرانكس كان أبي زيد شديد البعد عن التحرك الفعلي: "اجعله قائداً موحداً فرعياً، لأنك بحاجة إلى أربع نجوم. وعيّنني مسؤولاً عن جميع أعمال إعادة البناء، الإدارة المدنية. عيّن ماك كيرنان مسؤولاً عن سائر العمليات الأمنية والعسكرية".

اعترض رمسفلد على الفكرة، غير أنه لم يكن مستعداً للبوح بالسبب الذي دفعه إلى عدها غير وجيهة. بقي غارنر مصراً. شعر بأن ذلك كان هو الحل الضامن لوحدة القيادة الميدانية مع بقائهما ماك كيرنان وهو تابعين لأبي زيد.

في مكالمة هاتفية أخرى قال رمسفلد: "لم أعد أتحدث عن هذا".

في المرة الثالثة أو الرابعة لقيام غارنر بإثارة الموضوع، رد رمسفلد: "اسمع يا جي. سبق لنا أن ناقشنا هذا الأمر من قبل وأنت تعرف موقفي". صَفَق الهاتف. كان بوش وراس قد بينا بوضوح أن عسكرياً، أي عسكري، لن يتولى المهمة. تصوروا، كانت رايس تتصور "جون أبي زيد رئيساً للجمهورية".

رأت رايس أن غارنر أطال المكوث في الكويت. جميع الأشياء المهمة - إدارة الحكومة، استنهاض الوزارات والتوغل في العراق - لم تكن تتم. فهمت أن العراق كان فيه جهاز جيد للخدمة المدنية وافترضت استمرار وجوده إلى الآن. غير أنها تلقت، ولما يمض سوى بضعة أيام على اندلاع الحرب، تقارير تؤكد استحالة العثور على موظفي الحكومة بمن فيهم العاملون في المشروعات النفطية.

"ما معنى استحالة العثور على العاملين في المشروعات النفطية؟" سألتْ رايس.

توصلتْ إلى استنتاج يقول بوجود مرارة في البلد. بوصفها خبيرة في الشؤون السوفيتية كانت قد درست ما يحصل في الأنظمة الشمولية حين تنهار. تذكرت ما قرته عن موت جوزف ستالين في 1953. بقي الاتحاد السوفيتي مشلولاً مدة خمسة

أسابيع. لم يستطع أحد أن يفعل شيئاً لأن الجميع كانوا يعولون على التوجيهات الصادرة عن رأس الهرم. بدا العراق منحدراً إلى المستنقع نفسه أو إلى ما هو أسوأ. غير أن التاريخ يبشر بأن الأمر سيكون مؤقتاً. كانت واثقة من أن من شأن النظام أن ينجح، آخر المطاف، في فرض نفسه، كما سبق له أن فعل في الاتحاد السوفيتي القديم.

تعين على الاكس تي اف - اللواء المدفعي الذي تحول إلى وحدة صيد أسلحة دمار شامل - أن يتكيف. كانت الخطة تقضي بإرسال خمس فرق تسافر مع القوات المقاتلة وتصنف، أو تبادر بسرعة إلى التعامل مع، أي سلاح تدمير شامل تقع عليه، وإرسال ثلاث فرق إضافية ذات خبرة أكبر تزور منهجياً جملة المواقع الواردة في قائمة أسلحة الدمار الشامل الرئيسة. ومع النقص في عدد الأفراد والعربات تم الاكتفاء بإرسال ربع فرق مع الوحدات الغازية وفرقتين تألفت كل منهما من 12 إلى 25 عنصراً، وعُرفت باسم مت MET - الأحرف الأولى لعبارة "فرقة البحث النقالة" - للقيام بأكثر عمليات التفتيش تركيزاً.

في 8 نيسان/أبريل تدحرج قائد الاكس تي اف العقيد ريتشارد ماك في إلى د خل العراق مع فرقتي مت، في طريقه إلى عملية التفتيش الأولى في بلدة صغيرة واقعة إنى الجنوب من بغداد حيث كانت الاستخبارات قد أوحت بأن من الممكن العثور على نوع من أنواع السلاح الكيميائي. لم يكن ثمة أي شيء. لم يتم العثور حيث قيل إن مواد الكيميائية موجودة سوى على برميل بنزين سعة 55 غالون مدفونة.

جزء من الفريق هرع إلى موقع مشبوه آخر في كربلاء، نحو 60 ميل إلى جنوب غرب بغداد، حيث شاع أن عراقياً كان قد مرر رسالة إلى القوات العراقية تقول إنه عالم متخصص بأسلحة الدمار الشامل، لديه معلومات مفيدة للتحالف ويرغب في الاستسلام. بعد مطاردة دامت 24 ساعة في الصحراء العراقية، تمكنت الوحدة من تعقب الجنود المتوفرين على الرسالة ثم وصلت إلى العالم العراقي.

ترك العقيد ماك في الفرقة حيث هي وعاد جواً إلى الكويت على متن إحدى الحوامات للاجتماع بماركس. كان التوتر يتنامى حول ما إذا كان يتعين على الفرق مواصلة تعقب قائمة مواقع أسلحة الدمار الشامل المشبوهة أم أن الأفضل هو تعقب مسارات جديدة مثل الموقع الذي وشى به العالم.

قال ماك في لماركس: "لابد من القول إن هذا مهم،" وراح يصف العالم العراقي الذي لم يطلب شيئاً من الأمريكيين. أراد ماك في الحصول على تفويض يمكّنه من تكريس جهود ذات شأن على هذه المهمة المحددة.

"لا يتعين عليك يا ريتش أن تفعل ذلك، اسمع مني يا صاحبي،" رد عليه ماركس، قاصداً أن ماك في لم يكن يتعين عليه أن يعود إلى الكويت لطلب الإذن من أجل إنجاز المهمة. "مخول أنت على نحوٍ مطلق بمتابعة الأمر. لا تتردد".

كتب ماركس في دفتر مذكراته عن الاجتماع بإيجاز: "اختبار أسلحة الدمار الشامل - يجتي التوقعات متدنية". ولو مع هذا الانزعاج من نوعية المعلومات الاستخباراتية، ظل مارتس يفكر: 946 موقعاً! من غير الممكن أن يكونوا مخطئين في الجميع، أليس كذلك؟ حتى إذا كانوا على صواب في 30 بالمئة فقط من المواقع، فإن ذلك سيعني كمية مرعبة من أسلحة الدمار الشامل. كان من شأن الاهتداء إلى 300 أن يمكّن بطل القصة من الوصول إلى قاعة الشهرة. قال ماركس لنفسه "جميعاً سنذهب إلى كوبرزتاون". (الحي الذي يؤوي قاعة مشاهير البيزبول) شكّلَ خبر العالم العراقي حدثاً باعثاً على الارتياح.

عاد ماك في إلى العراق، ووحدة المت أمضت يوماً ونصف اليوم تقريباً مع العالم بحثاً في البداية عن المكان المحدد الذي كانت مواد أسلحة الدمار الشامل قد دُفنت فيه باعتقاده، ونشراً بعد ذلك لنوع من القوس حول المنطقة ومتابعة البحث.

كان ماك في يتواصل مع ماركس عبر الراديو الآمن والبريد الإلكتروني المشفر. أفاد "لا فرحة".

كانت تلك لحظة انعطاف بالنسبة إلى ماركس. "لا فرحة" خلاصة الكلام.

في 9 نيسان/ أبريل كان الجنرال فرانكس على اتصال فيديوي آمن مع اجتماع مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض. أفاد فرانكس بأن الحرب سائرة بنجاح وأضاف: "في الجنوب تم تدمير جميع تشكيلات العدو. ثمة مجموعات صغيرة تتحرك دون أن تشكل خطراً. وحدات المارينز والقوات البريطانية تعتصر الفرق العراقية".

في منطقة بغداد كانوا قد دمروا 90 بالمئة من معدات القوات العراقية، قال فرانكس:

"هل نركز على اقتناص الأشرار؟" سأل بوش.

"لقد وزعنا صور 55 من القادة. ثمة أعداد كبيرة من اللاجئين من الآن. بعض الأوعاد سيتمكنون من التسلل والتسرب غير أننا نبذل قصارى جهودنا لقطع الطرق الرئيسة".

أما الأزمة الإنسانية، حرائق حقول النفط والهجمات بأسلحة الدمار الشامل فلم تكن قد حدثت حسب إفادة فرانكس. تسع مئة من آبار النفط الجنوبية الألف باتت تحت السيطرة، والمئة الأخيرة ستصبح كذلك في غضون 48 ساعة. "ارتفع عدد سكان أم قصر" – ميناء العراق الرئيس القريب من الكويت – "في أسبوع واحد من 15.000 إلى 40.000. الماء أفضل مما قبل الحرب، الكهرباء تمت استعادتها، المواد الغذائية متوفرة،" قال فرانكس. هناك بعض المشكلات في مدن أخرى ولكنها، جميعاً، كانت تحت السيطرة.

طلب بوش أن يتم تكليف أحدهم بجمع الإحصائيات عما كانت عليه الحياة العراقية قبل الحرب في ظل صدام.

"لا نستطيع أن نستقبل أنساً في إحدى هذه المدن ليقولوا إن الأوضاع مخيفة. مقارنينها بنظيرتها في المدن الأمريكية. عليكم أن تقارنوا بما كان موجوداً قبل الحرب. كما كان". قال بوش "لقد عكف هذا الزبون مدة 20 إلى 30 سنة على تدمير البلد. إن إعادة بنائه سيستغرق بعض الوقت".

سننقل مقر قيادة ماك كيرنان إلى بغداد قال فرانكس. أما فريق غارنر فلن يبث أن يتبع. "تفتيش المواقع الحساسة سيستمر". إلى الآن لم يتم العثور على أي ترسانات أسلحة دمار شامل.

قال فرانكس إن مؤتمراً لممثلين عراقيين سيعقد خلال أيام في موقع التليل القريب من الناصرية، على مسافة نحو 100 ميل جنوب شرق بغداد. "سيكون اجتماعاً تنظيمياً دون التزام" بمعنى اجتماع أولي.

رد بوش: "تدبير حكيم جداً. سيرى العالم بأم عينه أننا لا نفرض خياراتنا، لا ننزلها بالمظلات. هل نحن مؤمنون بالديمقراطية؟ نعم، ها نحن ذا نقوم بجمع هؤلاء الإخوة".

قال بوش لرئيس الوزراء البريطاني بلير: "علينا أن نكسب قصة حقبة زمن السلم. لا نستطيع ترك أمر تحديد معالم حقبة زمن السلم لآخرين بعد أن انتصرنا في الحرب".

بادر رمسفلد إلى إيفاد مساعده الخاص لاري ديريتا إلى العراق. في اليوم نفسه صار ديريتا في قَطَر، يوم 9 نيسان/أبريل، بانتظار ركوب طائرة متجهة إلى الكويت، حيث كان سيتواصل مع غارنر.

في المطار رأى ديريتا على شاشة التلفزيون مشهداً مدهشاً يتكشف وسط بغداد ويُنقل نقلاً مباشراً لإيصاله إلى طول العالم وعرضه. فريق من المارينز كان قد توغل في بغداد كان يساعد جماعة من العراقيين على اقتلاع تمثال صدام بطول 20 قدماً باستخدام عربة مدرعة وسلسلة. كان المشهد رمزاً لانتهاء نظام صدام.

في تلك الليلة بعد هبوط ديريتا في الكويت، وافاه مرؤوسو غارنر بسلسلة من التقارير الموجزة في غرفة طعام صغيرة بإحدى "فلل" هلتون مدينة الكويت. إحدى المناقشات عرّجت على المكاسب التي كان العراقيون سينعمون بها نتيجة خطط إعادة الإعمار الأمريكية.

وحسب ما يتذكر العقيد بول هيوز فإن ديريتا ضرب بقبضته طاولة ثقيلة من خشب انسنديان وقال: "لسنا مدينين للعراقيين بأي شيء. نمنحهم حريتهم. ذلك هو كل ما يتعين علينا تقديمه إليهم. لسنا مدينين لهم بأي مكسب آخر".

ومع أن ديريتا لا يتذكر هذه التعليقات فإنه يقر بأن فكرته تمثلت بأن الولايات المتحدة كان يتعين عليها أن تساعد العراقيين في أن يتولوا العمل بأنفسهم. إذا جاءت الولايات المتحدة ومعها كميات كبيرة من الأموال النقدية الكافية لملء جيوب الجميع، فإنها كانت ستشجع العراقيين على اتخاذ موقف المتفرج. في حين أن رمسفلد كان يريدهم أن ينخرطوا في العمل.

بعد بضعة أيام التقى ديريتا كبار أركان غارنر في هلتون مدينة الكويت.

يتذكر هيوز أن ديريتا قال: "تورطنا في البلقان والبوسنة وكوسوفو ومازلنا فيها. ومن المحتمل أن ننسجن في أفغانستان مدة طويلة لأن وزارة الخارجية لا تجيد تنفيذ مهمتها. لأن جماعة الخارجية لا يكفّون عن إفساد الأمور، مما يبقي وزارة الدفاع مضطرة للغرق في هذه الأمكنة. لن نسمح لهذا بأن يحصل في العراق".

كان رد الفعل العام.: "عندك!" ألا يدرك هذا الزيون أن نصف الموجودين في الغرفة آتون من وزارة الخارجية؟"

وكما يتذكر هيوز فإن ديريتا واصل كلامه ليقول: "مع حلول نهاية شهر آب/أغسطس لن يبقى لنا في العراق سوى 25.000 إلى 30.000 جندي".

كان ديريتا قد سمع رمسفلد متحدثاً وراء الكواليس غير مرة عن الاحتلالات الأجنبية: "هي شبيهة بكسر العظم. إذا لم تُحكم ضبطه في البداية، فإنه سيبقى مكسوراً على الدوام". وفيما بعد قال رمسفلد: "أعتقد أنني استخدمت توصيف ذراع مكسورة. إذا لم تضبطها فإن أشياء كثيرة تتنامى حول الكسر وتغدو في مواجهة ذلك الوضع الشاذ". عمليات احتلال كثيرة مثل كوسوفو والبوسنة كان قد جرى التعامل معها كما لو كانت دائمة؛ ومن المؤكد أنها ما لبثت أن أصبحت دائمة.

الآخرون في الغرفة ذلك اليوم لا يتذكرون أن كلمات ديريتا كانت بهذه الصراحة غير أن أكثرية موظفي الخارجية في الاجتماع كانوا يعرفون غريزياً أن من المستحيل إدارة العراق بالطريقة التي تصورتها وزارة الدفاع. لم يبد الاجتياح ومن ثم الرحيل بسرعة ممكناً حتى على الصعيد المادي، فضلاً على أنه كان مثيراً للريبة على الصعيد الأخلاقي المعنوي. بقيت عينا روبن رافيل محدّقتين في السقف وهي تفكر: **ما الذي يدخنه لاري ديريتا؟ يا للمسكين! عاجز هو تماماً عن فهم الأمر.**

في اليوم التالي، يوم 10 نيسان/ابريل، اتصل هنري ريان مرة أخرى بغارنر. قال:

"يا أنت اسمع! لدينا مشكلة حقيقية في الوزارات".

"ما هي؟"

أفاد ريان بأن البيت الأبيض كان قد اطلع على قائمة مرشحي وزارة الدفاع لإدارة الوزارات العراقية. "وهم يريدون أن يعرفوا لماذا لا يقومون بتعيين الناس ولماذا نتولى نحن ذلك. لذا فإن علينا أن نرسل القائمة إلى البيت الأبيض، ونظن أننا سنضطر لوضع قائمة جديدة، مما سيؤدي إلى شيء من التأخير الإضافي".

"عظيم" قال غارنر ساخراً. "عندما تجمعهم وتعمل على تدريبهم ثم شحنهم لهنا، حيث سنبادر إلى استقبالهم بأذرع مفتوحة".

لم يكن رمسفلد متصوراً ولو مجرد تصور، أن جماعة غارنر كانت الفريق أ. بالكاد كانت ذات شأن. برأي غارنر لم يكن رمسفلد وهنري متوفرين على أي مفتاح لحل لغز ما كان يجري هنا على الأرض.

بعد أيام من سقوط تمثال صدام، ذهب الأمير بندر إلى البيت الأبيض لزيارة الرئيس. كان رمسفلد مغادراً حين وصل الأمير. قال لبندر:

"سنقوم بتسريع عملية الانسحاب. اطمئن".

عبّر بندر عن القلق إزاء مسألة توفير الاستقرار في العراق لبوش. كان الجيش الأمريكي قد احتل البلد، ولكن رمسفلد كان يتحدث عن انسحاب سريع. كرر بندر ما سبق له أن قاله لبوش قبل الحرب. سينشأ نوع من فراغ السلطة في العراق بالتأكيد. كان حزب البعث والجيش، بما فيه الاستخبارات وأجهزة الأمن العراقية، يتوليان إدارة البلد.

قال بندر "اعزلوا الشريحة العليا بسبب تورطها وأيديها الملطخة بالدماء. ولكن حافظوا على وحدة المؤسسات وتماسكها. ما يتعين عليكم فعله هو دعوة جميع أفراد الجيش إلى العودة إلى ثكناتهم والبقاء فيها، لنقل من رتبة عقيد ونازلاً. لابد لأحد ما من أن يتولى تسيير الأمور. افعلوا الشيء نفسه مع الاستخبارات وأجهزة الأمن العراقية. "اسمع، إن جهاز استخباراتهم كان هو الأكفأ. اعزلوا الشريحة العليا واحتفظوا بقيادات الدرجة الثانية وحاولوا اكتشاف السيئين، لأن أولئك الأوغاد سيكونون قادرين على امتلاك مهارة البحث عن الأشرار واقتناصهم". إنهم قادرون على العثور على صدام.

رد أحدهم: "يا لها من مبالغة في الماكيافيلية!" الملاحظات السعودية تشير إلى أن العبرة صدرت إما عن بوش أو رايس.

"دع الأوغاد يعثرون على الأشرار، وبعد ذلك تكون قد تحررت من الطرفين" قال بندر. "ما هي الصفقة الكبرى؟ اشغلوا كلاً منهما بالآخر. أعني، بحق السماء، من قال إننا مدينون لهم بأي شيء؟!"

لم يعلق أحد.

تتقاسم العربية السعودية حدوداً بطول 500 ميل مع العراق، وكان الاستقرار فيما بعد الحرب هاجساً رئيساً. كان من شأن الفوضى أو أي نظام متطرف، شيعي يدين بالولاء لإيران أن يشكل كابوساً بالنسبة إلى السعوديين، كابوساً ربما أسوأ من الاستقرار النسبي الذي كان صدام يوفره.

كانت تقديرات السعوديين تقول بوجود نحو 3 ملايين متقاعد في العراق، قابعين في بيوتهم، يحصل كل منهم على ما يساوي 6 دولارات في الشهر. نصح بندر: "اذهبوا

وادفعوا لهم لأجل لله! كل منهم يعول أسرة، أذكركم. وذلك يعني أن تسديد معاشات 3 ملايين يضمن تأييد 10 ملايين نسمة حرفياً. في غمضة عين تحصلون على قاعدة كبيرة وواسعة تؤيدكم مقابل دفع الثمن".

كانت تلك هي الطريقة السعودية. كان من شأن تسديد معاشات 3 ملايين متقاعد أن يكلف نحو 100 مليون من الدولارات. اقترح بندر اتباع الأسلوب نفسه مع الجيش العراقي. بتر الشريحة العليا، ومن ثم دفع رواتب الباقين لمدة ثلاثة أو ستة أشهر قد يكلف ذلك 100 مليون دولار آخر. بعد التحرير يجب خلق آمال عريضة لدى الناس، قال بندر. لا تحبطوهم. "عليكم أن تُشعروا الناس بأن حيواتهم سوف تتحسن".

من شأن حزب صدام وجيشه - جهازي القمع - أن يصبحا أداتين للاستقرار من شأن الكلفة الإجمالية لبرنامج شراء الولاء ألا تزيد على مبلغ 200 مليون دولار. لعله مبلغ الـ 200 مليون الأفضل والأجدى الذي سبق للولايات المتحدة أن أنفقته، كما قال الأمير بندر.

ألمح بوش إلى أن الأمر عائد لرمسفلد.

في زحمة الاحتفال بالانتصار العسكري السريع، باتت نشرات الأخبار في الولايات المتحدة متزايدة الامتلاء بصور النهب والفوضى. كانت روبن رافيل، ذات السنوات الـ 28 من الخبرة الدبلوماسية، في جنوب آسيا والشرق الأوسط في المقام الأول، كبيرة موظفي وزارة الخارجية بين مستشاري الوزارات. وفيما كانت هي وغيرها يتابعون البرامج التلفزيونية في الكويت، منتظرين فرصتهم للانتقال إلى داخل العراق، ماتو يتوجسون بشأن الأوضاع. هل كان فريق غارنر المؤلف مما لا يزيد على المئتين سيتولى إدارة البلاد كلها؟ إنه خيال محض.

"اطمئنوا" قالت رافيل لبعض من هم أصغر سناً في فريق غارنر. "الحقيقة هي أننا لا نستطيع ذلك بالفعل. لذا، لا تقلقوا. يكفي في الحقيقة أن نضع أقدامنا في العتبة أن نصل إلى هناك، وفي غضون أسابيع قليلة سنركع أمام الأمم المتحدة والأسرة الدولية". كانت تريد أن تطمئن.

في أحد مؤتمرات البنتاغون الصحفية يوم 11 نيسان/أبريل صرخ رمسفلد هاتفاً "التقطت اليوم إحدى الصحف؛ لم أستطع أن أصدق ما رايته. قرأت ثمانية عناوين

تتحدث عن الفوضى، العنف، الاضطراب. الأمور مقلوبة رأساً على عقب - "السماء موشكة على السقوط". لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا. إننا بصدد بلد جرى تحريره، أمم شعب يهم بالانتقال من حالة الاضطهاد والقمع في قبضة وبين براثن حاكم دكتتوري شرير إلى حالة التمتع بالحرية".

تعليقات رمسفلد تخللتها عروض صور أمام الإعلاميين. كانت المشاهد مذيَّلة بعنوين ملفات معينة مثل "عراقيون يتضاحكون مع جندي من الجيش الأمريكي"؛ "عر قيون مبتهجون يحيون جنوداً من الجيش الأمريكي"؛ "عراقيون سعداء يتصورون مع أحد لجنود الأمريكيين"؛ و"شابان عراقيان يرسمان إشارة النصر ترحيباً بجنود التحالف".

تابع رمسفلد كلامه قائلاً: "أريد أن أقول لكم شيئاً آخر: إن المشاهد التي تتابعونها على شاشات التلفزيون، وهي تتكرر مرة بعد أخرى، بعد ثالثة، وهي الصورة ذاتها للشخص نفسه خارجاً من أحد المباني ومعه مزهرية، وترون المشهد عشرين مرة وتقولون بينكم وبين أنفسكم: "يا إلهي! هل كان ثمة كل هذا العدد من المزهريات؟!""

ضحك رمسفلد وحذا الإعلاميون حذوه. سأل الوزير: "هل من الممكن أن يوجد ذلك العدد من المزهريات في البلد كله؟"

قام بوش بترديد صدى ذلك التعليق في مؤتمر صحفي عُقد بعد يومين: "مدهش كم ترون أن التمثال يسقط يوم الأربعاء وتبدأ العناوين تطلق عبارات: ثمة فوضى. نعم هناك فوضى" ليس الأمر مزاحاً. إنه وضع مشحون بالفوضى لأن صدام حسين خلق أوضاعاً تساعد على انتشار الفوضى".

"الجمعة، 4/11، دي + 23" كتب ماركس العنكبوت في مذكراته. "لا أسلحة دمار شامل".

في اليوم التالي طار إلى بغداد بصحبة ماك كيرنان. حتى مع نشوة وضع القدم في العراق للمرة الأولى ومئات الأمور الشاغلة لذهنه، ظلت أسلحة الدمار الشامل ترتع وتطفو على السطح. لم يقتصر الأمر على مجرد الإخفاق في العثور على الأسلحة؛ كان متمثلاً بالخوف من احتمال وقوعها بأيدي طرف آخر. كتب ماركس في 13 نيسان/ابريل بعد اجتماع مع الجنرال فرانكس: "تصور أسوأ الأمور التي يمكن أن تحصل". تمثل رده المختزل بعبارة "جهاديون أجانب مع سي بي دبليو،" بمعنى مع أسلحة كيميائية أو بيولوجية.

في 19 نيسان/أبريل، "دي + 31" بعد اجتماع مع الجنرال ماك كيرنان، قام مارس بتسجيل هدفي التحالف الرئيسين: "الحفاظ على وحدة حدود العراق،" و"العثور على أسلحة الدمار الشامل/الإجهاز عليها".

غير أنهم لم يكونوا يعثرون على أي شيء. بدا جزء من المشكلة متمثلة بأعمال السلب والنهب المركزة مع "العدد المحدود من القوات المتوفرة لتأمين المواقع الحساسة،" حسب ما جاء في أحد التقارير التي كتبها لاحقاً ضابط الإنذار الرئيس ريتشارد "مونتي" غونزاليس، الضابط المسؤول عن إحدى وحدات المت التابعة للعقيد ماك في

جاء في التقرير: "هدف تدمير مواد محددة كان واضحاً في كل موقع. في إحدى المرات، في أحد مقرات جهاز الاستخبارات العراقي، ذُهل الفريق إذ وجد العراقيين دائبين على تدمير مواد معينة، حتى فيما كانت القوات الأمريكية مشغولة بتمشيط المنطقة. ففي بيئة حضرية - دون توفر ما يكفي من الأمن - صارت مهمة استئصال اللصوص، وقف عمليات التخريب المدروسة، وحماية الفريق مهمة شبه مستحيلة".

17

دون الإتيان على ذكر الأمر على مسامع غارنر، كان رمسفلد عاكفاً على وضع خطة لإبداله بمبعوث رئاسي جديد في العراق، في منصب أعلى على نحوٍ ملحوظ من منصب غارنر. كان المبعوث الجديد مرشحاً لأن يكون مديراً أعلى، أو حتى نائب ملك. في 8 نيسان/أبريل، جمع رمسفلد في مكتبه البنتاغوني عدداً من الأشخاص ليتمكن ريان هنري من تقديم تقرير موجز عن قائمة مرشحين محتملين. كان ستيف هيربتس، الذي كان قد وضع نظاماً رسمياً لقرارات رمسفلد الرئيسة ذات العلاقة بالملاكات والمطلبة لأن تكون الوظائف والأهداف محددة بدقة، حاضراً. قال رمسفلد: "مع انتهاء هذ الاجتماع أريد من هيربتس أن يأخذ هذا التقرير ويعيد صياغته".

تضمنت قائمة هنري للمبعوثين المحتملين 100 اسم، تضمنت سيناتور تنيسي السابق ورئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض أيام ريغان هاوارد بيكر، وزيرا الدفاع السابقين جيمس سليزنجر وهارولد براون، حاكم ولاية كاليفورنيا السابق بيت ولسن، حاكم ولاية أوكلاهوما السابق فرانك كيتنغ، ورئيس الاحتياطي الاتحادي السابق بول فولكر. كان هناك بعض البريطانيين في القائمة – تمثل أحدهم بوزير الخارجية الأسبق للمملكة المتحدة اللورد كارينغتون – إضافةً إلى اثنين من الديمقراطيين – وزيري كلنتون للخزانة روبرت روبن ولاري سمرز. كان هيربتس يدرك أن الديمقراطيَين لم يكونا خيارَين جديين. غاب عن القائمة أناس ذوو خبرة في عمليات إشاعة الاستقرار بعد الحرب، مثل رتشارد هولبروك، سفير كلنتون السابق إلى الأمم المتحدة الذي كان قد أنجز اتفاق سلام بين الطوائف والفئات المتقاتلة في البوسنة عام 1996، وجيمس دوبنز، المستر ما بعد الحرب، موظف وزارة الخارجية السابق المتوفر على أغنى الخبرات والتجارب في مجال التعامل مع أوضاع ما بعد النزاعات. لم يتم النظر في هؤلاء لكونهم ذوي علاقة بخطة بناء الدول الكلنتونية.

بعد الاستماع نحو ساعة من الوقت، همس رمسفلد في أذن هيربتس: "أريدك أن تقوم بهذا، ولكن افهم أنه لرئيس الجمهورية".

خلال الساعات الـ 48 التالية عكف هيريتس على إعادة كتابة وصف الوظيفة تمثلت المهمات اختصاراً بالأمن. إعادة البناء والسياسة. اختزل قائمة المرشحين إلى الـ 10 الأوائل.

كتب هيريتس يقول إن أفضل المرشحين هو وزير الخارجية الأسبق جورج شولتز الذي سبق له أن تولى رئاسة شركة بكتل، إحدى شركات العقود الحكومية الكبرى. كان شولتز هذا البالغ 83 عاماً من العمر متمتعاً بسمعة أحد أكثر سياسيي العالم جدارةً بالاحترام. كان هيريتس يعده "راشداً دولياً". ومن صفاته الإيجابية: "القدرة على مواجهة جميع الآتين من الإعلام وفي المفاوضات،" و"الحيلولة دون تعريض وزارة الدفاع للنقد جراء ممارسات مقترفة وأخرى مهملة".

أما الصفات السلبية فتضمنت: "غير معروف بأنه من أصحاب المواقف... طاعن في السن - قد يتعرض للانهيار إذا ضُغط كثيراً.... ربما أكثر من عناصر وزارة الدفاع استعداداً لقبول وجهات نظر وزارة الخارجية ... قد يُتهم بأنه لم يتولَّ المنصب إلا لخدمة مصالح شركة بكتل".

غير أن هيريتس كان يخبئ في جعبته مرشحاً ملكاً للمنصب. فبرأيه كان الشخص المثالي المؤهل لإدارة العراق هو بول وولفوفيتز. قام بتأليف مذكرة منفصلة من أربع صفحات كانت ستُرسل لاحقاً إلى الرئيس بوش ثم تجد طريقها إلى يدي نائب الرئيس تشيني.

اختار هيريتس عبارة "التعامل الصحيح مع إدارة العراق" عنواناً لمذكرته المؤرخة في 10 نيسان/أبريل 2003. ثم كتب يقول: "لأن المرحلة الدبلوماسية الأولى أخفقت في تحقيق الإجماع العريض المطلوب للتحرك،" موجهاً سهماً إلى وزارة الخارجية، كان من الحاسم أن يتم التعامل مع المرحلة اللاحقة للعملية العسكرية على نحوٍ صحيح. فهيريتس الذي كان جزءاً من مجموعة بلتشلي الثانية قبل 16 شهراً وتوصل إلى استنتاج يقول بأن الولايات المتحدة مقبلة على حرب تدوم جيلين مع متطرفين إسلاميين كدت ستبدأ مع العراق، كتب يقول إن عن شأن النجاح أن يُبقيَ بوش في مواجهة "أحد نماذج خلق دولة فلسطينية" وحتى "انقلاب إيراني" مع الزمن.

تحت عنوان: "علامات رَوْز النجاح" كتب هيريتس يقول: "في الأشهر التي تلي إطلاق النار، من الضروري ألا تشب أي حرب أهلية. فالحروب الأهلية لابد من أن تذكّر، خطأ أكان ذلك أم صواباً، بفيتنام. واستراتيجية الرئيس ستموت في حضن ي مقارنة من هذا النوع".

"لابد من تحقيق حياة منتظمة وصحية للعراقيين بسرعة على أساس قابلية الدوام". والإدارة المدنية الداخلية المؤقتة كان يتعين عليها أن تصبح "أنموذجاً يُحتذى بالنسبة إلى سائر الشعوب والإدارات المحبة للحرية".

كان يجب منح المبعوث الرئاسي سلطة مطلقة "على جميع مسائل العراق خارج النشاط العسكري... ويقدم تقاريره إلى الرئيس إن أمكن وإلى وزير الدفاع فقط خياراً ثانياً".

طارحاً سؤال: "لماذا ينبغي للمبعوث الرئاسي أن يكون نائب وزير الدفاع وولفوفيتز؟" بدأ هيربتس فقرة جديدة. كان من شأن تعيين وولفوفيتز أن يوفر "وضوحاً للعالم" عن رؤية الرئيس للحرية ويؤدي إلى "إحباط مقاومة وزارة الخارجية التقليدية لإحداث التغيير في المنطقة".

ولأنه نائب لوزير الدفاع من الأساس، فإن وولفوفيتز "متوفر على جميع الصلاحيات الضرورية في منصبه الراهن".

"لكن الأهم والمحصور ببول شخصياً دون غيره هو أنه متمتع بأوسع قدرٍ من التحييد بين العراقيين". وكلمة "العراقيين" في هذا السياق لم تكن تعني سوى "عراقيي المنفى" وخصوصاً الجلبي. "من شأن القول بأنه ليس جوهرياً أن يُنظَر إليه على أنه استخفاف بهم. أما اختياره "فمن شأنه دون أدنى شك سيشكل تأكيداً لأهمية الشتات العراقي، بل ومركزيته في الحقيقة. إنه الرمز الأفضل للاستراتيجية الإجمالية على المدى الطويل".

أضاف هيربتس: "وكونه من اليهود أمر إيجابي: إنه تذكير بأن هذه ليست حرباً ضد الدين، إنه دليل واضح على أن المنصب مؤقت، بأن السفير السابق في أكبر بلد إسلامي لثلاث سنوات" - شغل وولفوفيتز منصب سفير الولايات المتحدة في إندونيسيا من 1986 إلى 1989 - "متوفر على خبرة التحلي بالحساسية الثقافية".

عصر اليوم التالي، أخذ هيربتس المذكرة إلى رمسفلد. أحدث الاقتراح صدمة أو ما يشبهها، ثمة كان نمط تفكير من خارج ساحة اليسار شديد الجاذبية بالنسبة إلى الوير. استدعى ديلوني هنري.

وجهها رمسفلد: "احذفي اسم هيربتس. ضعي التغطية التالية على المذكرة، وأرسليها إلى فاكس الرئيس الخاص". كتب ملاحظة قصيرة تقول إن صديقاً ورفيقاً

وفياً كتب هذه المذكرة الممتازة، مضيفاً: "أنا موجود خلال العطلة الأسبوعية كلها إذ أردت مناقشة الموضوع".

في عطلة نهاية الأسبوع كان هيربتس في بيت تشيني لتناول الغداء ولإطلاع تشيني على موضوع ذي علاقة بندوة في معهد المشروع الأمريكي. أخذ معه نسخة من مذكرته الوولفوفيتزية.

مقدماً النسخة إلى تشيني قال هيربتس: "أريدك أن تطلع على هذه لأنها قد تصلك".

ألقى تشيني نظره على الورقة وقال:"لقد رأيتها".

"يا إلهي!"

كنت في بيت رمسفلد لتناول العشاء مساء البارحة ولم يكن مستعداً للسماح لي بتناول الطعام قبل قراءة المذكرة". صمت تشيني قليلاً، ثم أضاف "ورقة جيدة". هو يرسم واحدة من ابتساماته المعروفة على وجهه.

قرأ ستيف هادلي مذكرة هيربتس ووافق عليها. كان وولفوفيتز المرشح المناسب. غير أن رمسفلد كان يصدر سيلاً من المذكرات، مغرقاً الجميع بمن فيهم رئيس الجمهورية بوابل من ندف الثلج الورقية. كان من شأن اختيار وولفوفيتز أن يعني تنياً للجلبي وكان الرئيس حريصاً على ألا تبدو الولايات المتحدة مرجِّحة كفة أحد الأطراف. يضاف إلى ذلك أن الرئيس كان يعرف أن وولفوفيتز لم يكن ذا سمعة جيدة في الإدارة. صحيح أن نائب الوزير كان مفكراً، إلا أنه بالكاد كان يدير مكتبه.

هيربتس ورمسفلد، كلاهما أخبرا وولفوفيتز بأنه مقترح مبعوثاً إلى العراق.

قال وولفوفيتز لرمسفلد: "إذا كانت تلك رغبتهم فسأكون سعيداً لتحقيقها".

بصرف النظر عن إيحاء هيربتس بكون جذور وولفوفيتز اليهودية نقطة إيجابية، فإن رمسفلد والبيت الأبيض، كليهما، كانا يخشيان من أن يتمخض تنصيب يهودي نائباً للملك في قلب العالم العربي عن قدرٍ غير قليل من المصاعب.

لم يبح رمسفلد لوولفوفيتز قط بسبب عدم اختياره. لاحقاً قال وولفوفيتز لأحد أصدقائه من الأمريكيين ذوي الأصول العراقية: "ربما كان انتمائي اليهودي ذا تأثير قوي".

كان غارنر شديد الرغبة في الوصول إلى بغداد. كان يؤمن بأن الطريقة الوحيدة لإعادة بناء البلاد تمثلت بالتعويل على المتعهدين والمقاولين. كان لابد لهم من استخدام المدنيين الأمريكيين والعراقيين المؤهلين لإنجاز عملية إعادة البناء لتمكينهم من البدء بالعمل. إلا أن ثلاثة فقط من العقود الـ 13 كانت موقعة. كانت خطة فرانكس تقضي بعدم تمكين غارنر وفريقه من دخول العراق إلى أن ينتهي الاجتياح وتبدأ عمليات استقرار المرحلة الرابعة.

طار غارنر إلى مقر القيادة الوسطى بقَطَر لمناشدة فرانكس شخصياً. كانت مهمته مهددة. كانت الفوضى أُمَّ جميع المشاهد الفضائحية.

توسل غارنر صديقه القديم ملتمساً: "لابد لك من تمكيني من الوصول إلى هناك".

"اسمع يا جي، ثمة قتال مازال دائراً هناك" قال فرانكس. مازالت بغداد منطقة اشتباكات. من قبل في كانون الثاني/يناير كان قد أكد أنه لن يسمح لغارنر بالدخول إلا بعد انتهاء القتال. "فكر بالأمر. لن يفيد أياً منا نحن الاثنين أن تتعرض عصبة من مدنيك للخطر في بغداد".

"انظر يا تومي، هناك فراغات في بغداد يجري ملؤها بأمور وأشياء لا نحبذها كلانا ولن نكون قادرين على الخلاص من تلك الأمور ما لم نصل إلى هناك الآن". أعمال العنف وعمليات السلب والنهب فاقت جميع التوقعات. "إذا لم تمكّنني من الوصول إلى هناك فإننا سوف نواجه مشكلات أكبر من تعريض حفنة من المدنيين لخطر القتل".

أخيراً وافق فرانكس: "موافق، عليها اللعنة! سأتصل بماك كيرنان لأرى ما إذا كان يستطيع دعم العملية". كلاهما كان يعرف أن آخر شيء يريده أي قائد ميداني في زحمة الحرب هو وجود حفنة من المدنيين معه. "اعلم يا جي إنه مشغول كثيراً الآن".

"أعرف ذلك" قال غارنر بنبرةٍ متعاطفة "وأنا سأحاول أن أكون خفيفاً قدر استطاعتي غير أن عليك أن تساعدني على الوصول إلى هناك".

اتصل فرانكس بغارنر تلك الليلة. "حصلت على الضوء الأخضر. تحدثت مع ماك كيونان. قال إنه سيعاني جراء توفير الدعم لك، إلا أنه مستعد لأن يحاول. ليباركك الرب! كن حريصاً!"

في 21 نيسان/ابريل طار عارنر وثمانية من عناصره إلى قلب بغداد. كل شيء كان وسخاً. المؤن الأساسية شحيحة. الكهرباء تضيء ثم تنطفئ. ذهب غارنر إلى محطة ضخ المياه المالحة، وجدها معطّلة. الحرارة لا تطاق. انطلق رئيس جهاز العاملين عنده. بيتس، مع باقي أعضاء الفريق في قافلة مؤلفة من نحو 150 سيارة شفروليه ريفية جديدة على طريق ممتدة مسافة 400 ميل من انكويت إلى بغداد. استولى غارنر وفريقه المنتخب على مبنى حكومي سابق أشبه بالقصور مؤلف من 258 غرفة، قريب من مركز المدينة.

بقي الرئيس قلقاً إزاء احتمال تعرض الولايات المتحدة لخسارة الحرب الدعائية. مهما كان اسمها - حرب العلاقات العامة، حرب كسب العالم، الدبلوماسية الشعبية. الاتصالات الاستراتيجية - باتت الولايات المتحدة موشكة على خسارتها.

أحد أركان رايس في مجلس الأمن القومي، جفري جونز، عقيد متقاعد من الجيش، كان قد قدم مداخلة سرية أمام أعضاء مجلس الأمن القومي الرئيسين تحت عنوان "استراتيجية الإعلام العراقية في المرحلة الرابعة" ملأى بالمصورات، المهمت الخطط التنظيمية، الأهداف والأطروحات. لم تصل المداخلة إلى شيء. كارن هيوز قيصرة بوش الإعلامية ومستشارة البيت الأبيض، رأت أن وزارة الخارجية لم تكن متحلية بما يكفي من الحماسة على صعيد شرح سياسة بوش الخارجية. أقنعت مارغريت تاتوايلر، أم استراتيجية الاتصالات الجمهورية خلال أعوام الرئيسين ريغان وبوش الأب، بتولي المنصب الرئيس في وزارة الخارجية بوصفها مساعدة وزير لشؤون الدبلوماسية الشعبية.

في مقالة نشرتها الواشنطن بوست، جرى تقديم تاتوايلر البالغة 52 عاماً من العمر، "فريق العمليات النفسية المؤلفة من امرأة واحدة،" بوصفها مولودة ومترعرعة في بيرمنغهام الآلابامية، وذات لَكْنة جنوبية قوية مفعمة بالثقة. كانت قد عملت على نحو متواصل مستشارة اتصالات وسياسة لجيم بيكر خلال 12 سنة طوال فترة بقائه رئيساً لجهاز العاملين في البيت الأبيض ووزيراً للخزانة في عهد ريغان ومن ثم وزيراً للخارجية في عهد جورج اتش دبليو بوش. لم يكن لديها سوى هاجس واحد: صورة بيكر ونجاحه.

حين وصلت تاتوايلر إلى بغداد، غرقت في مستنقع مشكلتي الحكم والاهتراء المجتمعي - لا حمامات "دوش": لا كهرباء يمكن التعويل عليها. كانت أسراب البعوض

تجهيز عليها وهي على قيد الحياة. غارنر شخصياً علّمها كيف تعد مقننات ميدانية عسكرية - أو "وجبات جاهزة للأكل". تبين أن الفروج المعد بطريقة خاصة هو طعامها المفضل. الفوضى، النفايات، القمامة والعبوات الفارغة كانت مائلة لجميع الأمكنة. لم يكن ثمة أي خصوصية في الغرف، إذا جاز تسميتها "غرفاً" وهي بلا أبواب أو نوافذ. النوم كان شبه مستحيل.

"يا له من حر شديد، عليه اللعنة" قالت لغارنر "أكاد أحترق".

رد عليها مقترحاً حل جندي عتيق: "اسمعي يا مارغريت. هذا ما يجب عليك فعله. اخلعي أكبر قدرٍ ممكن من ملابسك إلى درجة تبقين معها مرتاحة. إذا كان عندك كمية كافية من ماء القوارير بللي جسدك كله، صبي الماء على ملابسك وتمددي فوق الفراش داخل شبكة البعوض. سيتبخر الماء وستشعرين بشيء من البرودة".

صباح اليوم التالي سألها غارنر عن جدوى النصيحة.

قالت تاتوايلر: "أغرقت جسدي في الماء وتسللت إلى ما تحت الشبكة. كان الماء يقطر مني، أغمضت عيني ونمت. عندما استيقظت وجدتني موشكة على الاختناق، لم أستطع أن أطيق. كنا في قلب تلك العاصفة الرملية الهائلة. لم أكن سوى كرة من الطين".

استنتجت تاتوايلر أن انعراق كان كارثة عصية إلى درجة يتعذر حتى على جيم بيكر إيجاد حل لها. لم يكن في البلد أي مجتمع يؤدي وظيفته أو أي حكومة تضطلع بمسؤولياتها. غير أنها كانت تعرف من تجربتها أن أي بيت أبيض كان يطلب سيطرة شاملة ونتائج آنية. سرعان ما بدأت تتلقى اتصالات هاتفية من البيت الأبيض والبنتاغون اللذين كانا يشكوان من صور النهب والفوضى على شاشات التلفزيون وصفحات الجرائد. كانا يأمران: اعملوا على إزالة تلك الصورة!

قالت تاتوايلر للجميع في واشنطن إن فَراغَيْ السلطة السياسية والبنية التحتية كانا هائلين هولاً يتعذر تصور مدى ضخامته. إنه وضع يفوق كل شيء سبق لها أن رأته.

كانت تاتوايلر معجبة بغارنر. كان وطنياً صادقاً، برأيها، دون أي برنامج شخصي. غير أنه لم يكن جيم بيكر. لم يكن غارنر خبيراً في فن جر جميع اللاعبين في واشنطن إلى لحلبة - عملية إقناع سائر الأطراف والإدارات المختلفة - فن إرضاء البنتاغون، وزارة الخارجية، وكالة الاستخبارات المركزية، البيت الأبيض والخزينة. بدا غارنر

متوفراً على الآراء الصحيحة، غير أنه لم يكن حائزاً على جملة الصلات وأشكال الخوف الضرورية في واشنطن، كما لم تكن لديه القوة البشرية اللازمة في بغداد.

شكا غارنر لتاتوايلر من منعه من التحدث مع الصحافة منذ مغادرته لواشنطن، جراء استخفافه بالجلبي والمؤتمر الوطني العراقي في مؤتمر صحفي. مثير للسخرية. التوصل والشرح جزء من عمله. الصحافة متشككة، شديدة الاستياء ليقينها من أنه لن يتكلم.

عبثاً حاولت تاتوايلر رفع الحظر. فاتحت معارفها في البيت الأبيض، البيت الأبيض ووزارة الخارجية. لم يُبْدِ أحدٌ أيَّ حرص على تمكين غارنر من الكلام مع الإعلام. لم يكونوا يريدونه منحرطاً في الكلام عن خطط معينة. بدا متعجلاً "بَصَلَتُه محروقة". بل وتلقت تاتوايلر شكاوي عن عدم حرص غارنر عن إبداء الاحترام المطلوب في التعامل مع العراقيين إذ كان يتجول في أنحاء البلاد دون سترة وربطة عنق.

أخيراً اتصل غارنر برمسفلد محتجاً. رد عليه الأخير:

"ليس ثمة أي حظر عليك. يمكنك "لتحدث مع من تشاء".

على الفور بادرت تاتوايلر إلى تنظيم مؤتمر صحفي، غير أنها ما لبثت، وبعد 45 دقيقة فقط، أن أبلغته: "تمت إعادة الحظر عليك!"

"سأتصل برمسفلد" قال غارنر.

"لن يفيد ذلك في شيء" قالت تاتوايلر. "الأمر صادر عن البيت الأبيض". أي عن كارن هيوز.

بادرت تاتوايلر بعد ذلك إلى اجتراح نوع من الحل الجزئي. قررت دفع مراسلين إلى متابعة غارنر في تحركاته بما يوفر احتمال وقوع الأخير في "كمين" هذه المؤسسة الإعلامية أو تلك واضطراره إلى تقديم تعليقات موجزة. وبعد ذلك تتولى هي أمر التعامل مع واشنطن عبر القول بأنه "فوجئ بكمين ولم يستطيع إلا أن يقول شيئاً. لات التصوير كانت جاهزة ودارت على الفور. لو بقي صامتا لكان الأمر أسوأ".

غير أن نتف الأنباء الصغيرة والتعليقات المبتورة المجتزأة لم تكن مرضية على الإطلاق بالنسبة إلى كل من غارنر والإعلام.

باتت تاتوايلر صديقة هيرو طالباني، زوج الزعيم الكردي جلال الطالباني في أحد الحوارات التفتتْ هيرو إليها وقالت عبارة ظلت تاتوايلر تتذكرها لسنوات إذ أعلنت: "كنا ننتظر منكم أيها الأمريكيون ما هو أكثر".

بعد انقضاء أسابيع على اندلاع الحرب، كان المزيد والمزيد من الوريقات تتطاير حول مكتب رمسفلد والبنتاغون عن كيفية تنظيم العواقب. مسودة إحدى الوثائق السرية المصفة في خانة مكتوم كانت تحمل عنوان "الاستعادة: الأولية المدنية،" مع تنصيب وزير الدفاع فوق كل شيء متدفق نزولاً عبر القيادة المركزية، الجنرال فرانكس. مسودة أخرى وضعت الرئيس على قمة الهرم، يليه رمسفلد ومن ثم "مدير تحالفي" جديد. جرى إدراج اسم غارنر بوصفه نائباً للشؤون المدنية، والجنرال أبي زيد نائباً لشؤون الأمن والدعم. كلاهما كانا سيتبعان "الإداري التحالفي". وثيقة أخرى أتت على ذكر نائب للأمن والدعم ولكن دون إيراد اسم أبي زيد.

كان هيربتس لا يزال يبحث عن المبعوث المثالي. ومع حلول يوم 22 نيسان/ابريل، بعد انقضاء ما يزيد على شهر على الغزو، كان قد أكمل قائمة بمواصفات ضرورية: انتزام برسالة الرئيس، تجاوب مع توجيهات الرئيس ورمسفلد، الحكمة، المهابة، الحضور والقدرة على التواصل، التعاطف، مهارات التفاوض السياسي، مهارات التنسيق بين الإدارات، قابلية التوفر والعزم. رأت الوثيقة التنظيمية أن يكون غارنر تابعاً للمبعوث الخاص، الجديد، الذي لم تتم تسميته بعد، بعيداً عن التسلسل الهرمي العسكري.

في فقرة المهمات المفتاحية لعملية الانتقال إلى حكومة عراقية مؤقتة، تم إيراد جميع المسائل الاقتصادية والسياسية تحت عنوان "ما لن يعالج راهناً". اشتملت القائمة على كل شيء من القروض، الاعتمادات والخطة النفطية إلى مهمات الإصلاح، سيادة القانون والعملية السياسية للحكومة الجديدة. كان ذلك بعد أسبوعين كاملين من سقوط بغداد.

نظراً لأن أي شخص ذا علاقة بإدارة كلنتون عُد، آلياً، غير مؤهل، فإن اسماً واحداً ظل يقفز إلى صدر قائمة هيربتس الوجيزة: ال بول "جَري" بريمر، خبير إرهاب في الـ 61 من العمر موظف خارجية منذ 23 سنة. وبوصفه من صنائع هنري كيسنجر كان بريمر سفيراً للولايات المتحدة في هولندا بين عامي 1983 و1986، وسفيراً فوق العادة لشؤون محاربة الإرهاب لدى وزارة الخارجية بعد ذلك، غير أنه كان قد تقاعد من الخدمة في الخارجية بما أبقاه في منأى عن التلوث بالخدمة في وزارة كلنتون الخارجية. كان مديراً إدارياً لمؤسسة كيسنجر، مؤسسة وزير الخارجية الأسبق الاستشارية، لما يزيد على عقد من الزمن قبل أن يتولى في 2000 رئاسة الهيئة القومية للإرهاب. وقبل هجمات 9/11 الإرهابية كان قد تنبأ علناً باحتمال تعرض قلب الولايات

المتحدة للضرب. وبريمر الطفولي ذو الشعر الكثيف هذا بدا مفرط الثقة بالنفس ومتحلياً بصرامة قريبة من الصلّف والزهو.

في 24 نيسان/ أبريل اتصل رمسفلد بباول ليقترح عليه اسم بريمر. استمهل باول للتفكير بالأمر. عكف الأخير مع آرميتاج على استعراض سجل خدمة بريمر فترة 23 سنة في الخارجية مع معاينة علاقته الوثيقة بكيسنجر ووزارة الخارجية. "وجدتُها" هتف آرميتاج. نعم، كان بريمر حليفاً محتملاً. غير أن الرجلين قررا ألاّ يبديا قدراً مفرطاً من الحماسة. فمن شأن ذلك أن يؤدي، بالتأكيد، إلى قتل فرصة التعيين.

بدا رمسفلد دفاعياً بعض الشيء فيما يخص دوره في عملية انتقاء بريمر حين أجريت معه مقابلة في 2006.

قال رمسفلد: "كان جَري بريمر، بالطبع، مبعوثاً رئاسياً، مما جعله تابعاً للرئيس وكوندي وأركان مجلس الأمن القومي".

"كان من اختيارك أنت" قلت له.

رد رمسفلد: "مهلاً، دقيقة واحدة، اتفقنا عليه جميعاً، رأيناه الزبون المناسب. أعتقد أنني نسيت من أين جاء الاسم، ربما كان جورج شولتز هو الذي أوصى به".

فيما بعد قال شولتز حين سألته عن الأمر: "ذلك غير صحيح. اتصل بي دون وكانت معه قائمة". مضيفاً أنه عبّر عن رأي إيجابي عن بريمر. ثم قال: "إلا أن القائمة كانت تشتمل أيضاً على هوارد بيكر، وربما كان الأخير الشخص المثالي لأنه سياسي وقادر على التواصل مع آخرين".

ذكرت لشولتز أنه كان في البداية على رأس قائمة البنتاغون لمرشحي المبعوث العراقي.

أصيب شولتز بشيء من الدهشة وقال: "إنها المرة الأولى التي أسمع فيها عن الموضوع"

علقتُ قائلاً إن من الواضح أن البنتاغون شعر بأنه ربما كان ميالاً أكثر مما ينبغي إلى وزارة الخارجية وعصياً على التحكم.

"لم يسبق لي أن كنت قابلاً للانقياد والتحكم،" قال شولتز.

الزعيمان الكرديان، مسعود البرزاني وجلال الطالباني، القائدان والمتنافسان القديمان للمنطقة الكردية شبه المستقلة في شمال العراق، كانا قد نجحا، إلى حدٍّ

كبير، في إزاحة خلافاتهما جانباً، في مسعى ذرائعي لخدمة مستقبل أكراد العراق. في نيسان/ أبريل 2003، أعلن الرجلان عن رغبتهما في تشكيل حكومة مؤقتة ببغداد.

تنبه غارنر إلى الخطر. من المؤكد أن الاستراتيجية الأمريكية قضت بإلباس ثوب عراقي لأي حكومة مؤقتة، إلا أن العراق ذو أكثرية شيعية، ولم يكن الأكراد سوى أقلية متلهفة في ذلك مثل السنة. كان لا بد لأي حكومة جديدة من أن تكون ذات صفة شيعية غالبة. في 22 نيسان/ أبريل، بعد الوصول إلى بغداد مباشرةً، طار غارنر ولاري ديريتا إلى اشمال لرؤية البرزاني والطالباني. الرجلان، كلاهما، كانا صديقين قديمين لغارنر منذ عملية توفير الراحة، على الرغم من أن الأخير لم يكن قد التقاهما منذ ما يزيد على عقد من الزمن. متحدثاً أمام حشد كردي جاء للترحيب به عند الوصول قال غارنر: "أشعر اليوم كما لو كنت عائداً إلى بيتي". استقبله البرزاني والطالباني بالعناق والقبل. انتحى غارنر بالرجلين وهمس في آذانهما بدفء قائلاً: "أحد أسباب مجيئي إلى هنا، أردت أن أراكم، هذا أولاً. أما ثانياً، فقد علمت أنكما تخططان لتشكيل حكومة في بغداد. أرى أن الأمر ينطوي على بعض المشكلات".

"لسنا عاكفين على تشكيل أي حكومة" قال الطالباني.

"ذلك هو ما قيل لي،" رد غارنر.

"لا، سنقوم بتشكيل مجموعة استشارية، قيادة وجاهة إذا شئت. ألا تعتقد أنك بحاجة إلى مثل هذه القيادة؟"

"بالمطلق،" قال غارنر "أريد ذلك. ممن ستتألف تلك القيادة؟"

رد الطالباني: "ستتألف من جميع أولئك الذين كانوا يعملون مع زال". قاصداً زلماي خليلزاد من مجلس الأمن القومي الذي كان يعمل معهم منذ سنة ونصف السنة، والذي كان قد عُين "سفيراً للعراقيين الأحرار". أتى الطالباني على ذكر ثلاثة من العراقيين الذين ينبغي إشراكهم برأيه. ثمة كان عدنان الباتشة جي، وهو سني يزيد عمره على الثمانين وقد سبق له أن كان وزيراً للخارجية العراقية وسفيراً لدى الأمم المتحدة قبل وصول صدام حسين إلى السلطة. وبعده كان إياد علاوي، ذلك الزعيم الشيعي لجماعة معارضة في المنفى اتخذت من لندن مقراً لها عُرفت باسم الوفاق الوطني العراقي. وأخيراً، كان هناك، على نحوٍ حتمي، أحمد الجلبي.

علق غارنر قائلاً: "اسمع، إليك المشكلة التي أجدها في الأمر. جميع أولئك السادة باستثناء كليكما خارج البلاد، وأنتما كرديان. ماذا عن شخص من داخل البلد، شخص كان هنا وهو عربي؟"

رد الطالباني: "سنقوم بإدخال الحكيم في التركيبة"، مشيراً إلى محمد باقر الحكيم، الزعيم الروحي لأكبر الأحزاب الشيعية في العراق، المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق (اس سي آي آر آي). "فكرنا بالجعفري" - إبراهيم الجعفري، شيعي في المنفى وخصم لدود لصدام - "كما سنقوم بإدخال شخص مسيحي".

"موافق، من شأن ذلك أن ينجح،" قال غارنر، ولكنه أضاف: "الشيء الوحيد الذي يقلقني هو وجود الحكيم. إنه إيراني أكثر مما ينبغي".

واضعاً يده على ساق غارنر قال طالباني: "من الأفضل يا جي أن يكون الحكيم داخل الخيمة بدلاً من تركه خارجها".

"لعلك تسوق نصيحة سديدة، عليها اللعنة. فلنتابع العمل. أريدكم في بغداد خلال أسبوع، جميعاً. اصطحب نوابك معك. أريدكم أن تشكلوا لجنة نواب". كانت اللجنة ستتسق مع فريق غارنر على نحوٍ مباشر.

"سنفعل" قال الطالباني.

قال غارنر للزعيمين: "اسمعا، إذا نجح هذا فسوف أشكل لكم حكومة مؤقتة. صحيح أنكم ستكونون تابعين لي إلا أنني سأعطيكم حكومة مؤقتة".

ثم تحول إلى بعض الاعتبارات العملية، إذ سأل: "ما الذي سنفعله بشأن الدستور؟ لابد لنا من إشراك الناس".

رد الطالباني: "لقد فكرنا بالأمر. سنعقد اجتماع خيمة كبيرة وسندعو إلى الاجتماع 200 إلى 300 شخص. سيكون هذا لوحة فسيفسائية ممثلة للعراق، يا جي. ستشمل سائر الجماعات العرقية، جميع الأديان، كل المذاهب... من الجنسين. سنقوم بصياغة هذا الدستور. سنزودك بقائمة الأسماء ويمكنك أن تشطب كل من لا يعجبك وتضيف من تريده".

"بأي سرعة نستطيع أن ننجز هذا؟" سأل غارنر، متذكراً وعده لزوجه بأنه سيكون عائداً في الرابع من تموز/يوليو.

وعد الطالباني: "سنطلق العملية في الأول من تموز/يوليو،" قال الطالباني.

فور انتهاء الاجتماع اتصل غارنر بالجنرال أبي زيد ليشرح الخطة.

تساءل الجنرال عن مدى احتمال نجاح العملية.

"لا أعتقد أن لدينا أيَّ خيار آخر" قال غارنر.

"أنا أيضاً لا أرى أن لدينا خيارات أخرى. فلنطلق العملية إذن".

"أريدك أن توفر مروراً آمناً للطالباني والبرزاني من الشمال إلى بغداد،" قال غارنر.

طلب غارنر من ديريتا أن يتصل بالبنتاغون للإبلاغ عما كان يجري. أما هو فاتصل بباول.

سأله وزير الخارجية: "ما الذي تفعله أنت هناك؟"

سارع غارنر إلى وصف خطة إيجاد حكومة مؤقتة من خلال وضع الجميع تحت خيمة واحدة.

"مثير للاهتمام" قال باول. بدا الأمر كما لو كان شبيهاً بمعارض خيم البيع التي يُعلن عنها في شاشات التلفزيونات من قبل كبار تجار السيارات. كان يعلم بأن المسألة كانت أكثر تعقيداً بما لا يقاس. ثمة كانت زحمة كبيرة من المحاولات المتنافسة. من الواضح أن البنتاغون وتشيني كانا يدعمان الجلبي. في إحدى المناسبات كان خليلزاد قد قدم خطة سرية عن العملية السياسية العراقية بعنوان "ميغابريف تو" أمام كبار المسؤولين – باول، رمسفلد، رايس، تشيني، ميرز وتنت. كانت تلك خطة لتنظيم العراقيين على المستوى المحلي، عبر إجراء نوع من الإحصاء وإطلاق الجهود الرامية إلى بناء أحزاب سياسية وصولاً بعد ذلك إلى تأسيس إدارات محلية تشكل أساساً للانطلاق نحو المستوى الوطني.

كان من شأن ذلك، حسب أي تقدير متواضع، أن يستغرق أعواماً من العمل. سارع كبار المسؤولين إلى إزاحة الفكرة والخطة السرية كلتيهما جانباً. قرروا وجوب الامتناع عن دفعهما إلى الرئيس.

كان بوش قد وافق على تعيين إداري كبير مسؤول أعلى مرتبة من غارنر. إلا أنه كان يريد أن يرى الخطة التنظيمية في الجانب الأمريكي والاطلاع على الأسلوب الذي سيتم اتباعه لتشكيل حكومة في العراق.

دعا هادلي إلى اجتماع لجنة نواب، ولكن الاجتماع لم يتوصل إلى صياغة وثيقة تنظيمية نهائية. ألمح هادلي إلى أن الرئيس كان متوتراً، وقال إن الأخير كان يريد أشخاصاً مفتاحيين من كل وزارة وإدارة أن يتخلف ويعمل، مثل فرانك ملر، إليوت آبرامز، شخص من الخارجية وممثل لوكالة الاستخبارات المركزية. أضاف هادلي مازحاً أنه كان سيبقي المجتمعين سجناء في غرفة العمليات إلى أن ينجزوا العمل.

قام دوغ فايث، الذي كان يمثل الدفاع، عازماً على المغادرة. كذلك نهض نائب فايث، وليم لوتي، وهو نقيب بحري متقاعد كان مرافقاً لنيوت غنغرتيش وتشيني، من مكانه قائلاً: "يتعين علي أن أعود بصحبة فايث. إنه صاحب واسطة النقل".

تدخل فرانك ملر: "سمعتم ما قاله ستيف. علينا أن نبقى هنا ونتابع العمل".

"سنحاول إرسال أحدهم،" قال لوتي وغادر، غير أن أحداً لم يأت من البنتاغون.

على امتداد ساعتين، جهدت الجماعة كثيراً من أجل التوصل إلى وضع خطة مع إداري أمريكي على القمة. كان من شأن مجلس شيوخ عراقي وممثل أمم متحدة أن يتشاورا مع الإداري، إلا أن سلسلة الأمر كانت تخرج الإداري الأمريكي إلى الوزارات العراقية التي ستكون خاضعة لرئاسة موظف أمريكي مع مستشارين عراقيين. ومع مرور الزمن كان العراقيون سيتولون الأمر في حين كان الممثلون الأمريكيون سيتحولون إلى مستشارين. بعض الوزارات الأقل أهمية كانت ستُنقل إلى التحكم العراقي، أما الوزارات الحاسمة مثل الدفاع والداخلية فكانت ستبقى خاضعة لتحكم الولايات المتحدة مدة طويلة.

تصورت الخطة احتلالاً طويلاً.

في اليوم التالي جرى تقديم الوثيقة والمخطط إلى اجتماع الوزراء والمدراء. علق رمسفلد متمايلاً: "ليس هذا نتاجاً مشتركاً للأطراف. مندوبو وزارتي لم يكونوا مشاركين".

"سيادة الوزير" قال ملر "طلب هادلي إنجاز العمل. جماعتك غادروا واعدين بأنهم قد يرسلون أحداً. لم يكن ثمة أي خيار آخر. صاحباك خرجا من اللعبة".

أحجم رمسفلد عن الرد، غير أن الخطط والخرائط لم تكن إلا تجريدات. بموجب توجيه الرئيس إن إس بي دي - 24 كان هو المسؤول.

18

مع أنه خارج الحكم رسمياً منذ 1999، فإن رئيس مجلس النواب نيوت غنغريتش بادر الى اقتحام الزحام موجّهاً على رؤوس الأشهاد وابلاً من سهام النقد واللوم إلى وزارة الخارجية على الإخفاق الدبلوماسي من ناحية والحرب الإيديولوجية المستعرة داخل الإدارة من ناحية ثانية. ففي 24 نيسان/ابريل، قال في خطاب ألقاه بمعهد المشروع الأمريكي: "عادت وزارة الخارجية إلى اعتماد سياسات ستفضي بوضوح إلى تبديد جميع ثمار الانتصار الذي كلّف غالياً".

رد عليه آرميتاج نيابة عن باول قائلاً: "من الواضح أن السيد غنغريتش خارج للتو من المصح وخالٍ من الدواء".

وبعد بضعة أيام، أقام جهاز العاملين حفلاً صغيراً في مكتب آرميتاج الكائن على الطبعة السابعة بمناسبة عيد ميلاده الـ 58. أرسل تنت ملصقة كبيرة عليها صورة كريكاتورية لآرميتاج حاملاً أثقالاً، شديد التوتر ينضح عرقاً. وتحت الصورة عبارة: "خارج للتو من المصح وخالٍ من الدواء. عيد ميلاد سعيد".

لم يكن غارنر يعرف إلا القليل عن جميع الاجتماعات والشجارات الحاصلة في واشنطن. وحسب علمه فإن مسؤوليات ما بعد الحرب كانت عائدة إليه هو. ساعة وصوله إلى بغداد كان أحد المراسلين قد سأله عن مدة بقاء الولايات المتحدة في العراق وعما إذا كان هو حاكم البلد الجديد.

رد غارنر: "لا أظن أنني سأضع 90 يوماً علامة على الجدار، غير أننا سنبقى هنا المدة الزمنية اللازمة. سنغادر بسرعة معقولة". ثم أضاف: "أما حاكم العراق الجديد فسيكون عراقياً. أنا لست حاكماً لأي شيء".

من الواضح أن الوضع في العراق كان مختلفاً عما توقعوه. سيناريوهات أسوأ الاحتمالات التي كان الجميع قد تخوفوا منها لم تتحقق: حرائق حقول النفط، جموع النازحين، اللاجئين، الأوبئة، الخسائر البشرية الجماعية جراء حرب كيميائية. غير أن

المشكلات كانت أشد خبثاً لأنها كانت واسعة الانتشار وبالغة العمق. في 23 نيسان/ابريل جلس غارنر ووضع قائمة تسعة أشياء كان يريد تحقيقها قبل "اجتماع الخيمة" في 1 تموز/يوليو ومغادرته المبرمجة. كانت القائمة أساساً برنامج حكم صالح طموح يغطي كل شيء من الشرطة إلى شبكة الصرف الصحي(*).

ثمة هدف عاشر يتعين عليك أن تضيفه إلى القائمة، ألا وهو الأمن، أشار ماك كيرنان. ثمة كان بعض القتال متواصلاً ولكن دون تفجر كبير لأعمال العنف. وافق غارنر وأضاف الأمن بوصفه الهدف العاشر. لم يلمّح أي منهما إلى أن ماك كيرنان، المسؤول عن قيادة ما لا يقل عن 150.000 جندي أمريكي وبريطاني، كان عاكفاً، بهاء، على نقل المسؤولية عن الأمن إلى غارنر، الذي لم تكن منظمته تتجاوز الـ 200 عنصر.

أعمال النهب كانت مستشرية. تذكر العقيد توم بالتازار أحد أركان غارنر لاحقاً أنه شاهد: "زورقاً للهو، زورقاً بطول 25 قدماً، مقطوراً بسيارة في وسط الشارع الرئيس ببغداد. كان الزورق مجروراً على الأرض بدلاً من نقله على شاحنة" كان أحدهم قد ربطه بمؤخرة السيارة وراح يجرها مُجّهزاً على الهيكل إجهازاً كاملاً. سيارة أخرى مرت بسرعة جارة مدفعاً قديماً، أحد المدفعين اللذين كان البريطانيون قد تركوهما تزييناً لمدخل إحدى الأكاديميات العسكرية العراقية في 1924.

توسل بالتازار ماك كيرنان قائلاً: "عليكم أن توقفوا هذا. رسالتنا هي استعادة الإدارة والحكم ولا نستطيع تحقيق ذلك إذا ما جرى تخريب كل شيء".

(*) تضمنت قائمة غارنر للمهمات الواجب إنجازها قبل الفاتح من تموز/يوليو ما يلي: (1) إعادة تفعيل جميع الوزارات العراقية. (2) دفع رواتب جميع الموظفين في طول البلاد وعرضها بمن فيهم أفراد الجيش والشرطة. (3) استعادة الشرطة، المحاكم والسجون. (4) تأمين الخدمات الأساسية في بغداد – الماء، الكهرباء، الصرف الصحي وغيرها. من شأن هذا أن ينطوي برأي غارنر على فائدة إضافية لأن أكثر المراسلين الأجانب العاكفين على تغطية أخبار العراق كانوا متمركزين في بغداد. سيكونون أكثر سعادة – وقد يكتبون تقارير أفضل – إذا توفرت لهم مرافق التكييف وحمامات المياه الساخنة. (5) وضع حد لأزمة المحروقات. (6) شراء المحصول العراقي – أطنان من الشعير والقمح. (7) استعادة نظام توزيع المواد الغذائية. (8) استعادة الإدارة المحلية الانتقالية عبر تنظيم انتخاب مجالس البلدات والمدن في كل من المدن العراقية الـ 26 التي يزيد سكان كل منها على 100.000 نسمة. (9) ضمان استمرار جهاز الصحة العامة ومواصلة مكافحة الأوبئة.

تذكر بالتازار أن ماك كيرنان قال له: "لا أريد أن أسمع ذلك منك مرة أخرى يا توم. حذرك. هذا ليس شأني".

ومهما يكن فإن غارنر كان يشعر بأنه كان على علاقة استثنائية الإيجابية والنجاح مع ماك كيرنان فأركان الأخير كانوا أفضل من سبق لغارنر أن رآهم، مع جنرالات نجمة ونجمتين متولين قطاعات كان من شأنها ألا تحظى بعقداء في أي تنظيم شبيه. تمت الموافقة على تكليف ضابط كبير - جنرال بنجمة واحدة أو أميرال على الأقل - بمتابعة كل من أهداف غارنر العشرة، مع قيام غارنر بتعيين موظف مدني كبير من فريقه لكل من هذه الأهداف، وصولاً إلى تشكيل فريق عسكري - مدني مختلط. صغار الضباط القادة دأبوا على الإنجاز رغبة منهم في أن يرتقوا إلى مرتبة كبار ضباط قيادة. لم يكن ثمة حزمة طاقة أكثر لفتاً للأنظار من جنرال نجمة واحدة مضطلع بمهمة.

في بغداد، لاحظ غارنر أن القوات الأمريكية كانت منتشرة في كل الأمكنة في دبابات وعربات جند مدرعة. أراد اختزال استعراض القوة. أطلق على الدبابات اسم "ساحقات الأرصفة" وفي إحدى المرات طلب من إحدى الوحدات: "ضعوا حداً لامتطاء هذه الجنازير" اللعينة وكفوا عن تمزيق الأرصفة والحوافا" بل وقد فاتح أحد معاوني ماك كيرنان طالباً منه تسيير المزيد من الدوريات الراجلة، الخروج من الملابس الواقية والخوذ المعدنية. رفض غارنر ارتداء سترة واقية من الرصاص أو التنقل في عربات مدرعة. كان من شأن الأمر أن يشي بالرسالة الخطأ.

غير أن نوعاً من التوتر كان يلف المدينة، وكانت القوات الأمريكية مشدودة الأعصاب وأيدي أفرادها على الزناد. عموماً درج الجنود على البقاء مدرعين مئة بالمئة وفي وضعية قتالية.

نحو السادسة من مساء يوم 24 نيسان/ أبريل همس العقيد الجوي كيم أولسن، مساعد غارنر التنفيذي في أذن الأخير قائلاً: "لك مخابرة من وزير الدفاع".

ما إن وضع غارنر الهاتف على أذنه حتى بادره رمسفلد: "عظيم حقاً ما تقومون به من حمل يا رجل. نحن فخورون بما تفعلونه". أضاف أنه علم بأن فريق غارنر قد وصل كاملا وبدا رائعاً برأي رمسفلد.

"نعم سيدي" قال غارنر.

"بالمناسبة" قال رمسفلد "يكمن أحد أسباب اتصالي في رغبتي بإبلاغك بأن الرئيس قد اختار جَري بريمر ليكون المبعوث الرئاسي". لم يكن يعرف تاريخ إعلان النبأ، إلا أنه كان يريد أن يتأكد من إطلاع غارنر المسبق.

متفاجئاً بالأمر رد غارنر قائلاً: "حسناً، إذا كان الرئيس قد اختار أحدهم فما علي إلا أن أعود".

"لا" اعترض رمسفلد. "لا أريد أن تعود".

"ذلك غير صحيح" قال غارنر. "لا تستطيع إبقاء المسؤول السابق وإرسال المسؤول الجديد إلى المكان، لأنك تسهم في تمزيق ولاءات الناس؛ لذا فإن الحل الأمثل بالنسبة إليّ هو الخروج من الحلبة".

"لا تُقدم على أي حركة إلى أن آتي إلى العراق. سنتحدث، أنت وأنا" قال رمسفلد الذي كان يخطط للسفر في غضون بضعة أيام. "كانت هذه هي الخطة على الدوام، يا جي. أنت تعرف ذلك. تلك كانت خطتنا باستمرار".

"نعم، ذلك صحيح. لابد لي من أن أعطيكم ذلك". قال غارنر. كان الأمر يحدث أبكر مما أعتقد.

"أريدك أن تتصل بجَري بريمر". قال رمسفلد، وأعطاه رقم الهاتف.

"سأفعل".

بعد انتهاء المكالمة، شعر غارنر بأنه كان قد تعرض لعملية غدر، كما تذكر فيما بعد. "كنت أفكر: يا لهم من أوغاد وأبناء كلاب! بذلت أقصى ما أستطيعه من جهد. تخليت عن كل ما كان بيدي. تركت جميع الأعمال التي كنت أتابعها دون التفاتة وحدة إلى الخلف. ظننت أنني قدمت خدمة استثنائية في إيجابيتها آنذاك. ذلك ما كنت مقتنعاً به". أضاف غارنر أنه شعر بأنه خُدع. "كنت ساذجاً إلى درجة أنني ظننت أنني قادر على إطلاق كل هذه العملية وأضطلع بمثل هذا الدور الحاسم بين العراقيين.. توهمت "تمكنت من جعل الأمور كلها تسير". ولم يكن مطلوباً منهم سوى أن ينتظروا تمخض العملية عن الثمار اليانعة وأن حدوث ذلك لن يستغرق طويلاً".

قال غارنر: "ما أزعجني حقاً هو أنهم لم يعلنوا قط ما كانوا يفعلونه. فجأة يأتي بريمر ويبدو الأمر كما لو كنت مطروداً، ربما ذلك هو ما حصل بالفعل".

"أظن أن العالم الخارجي كان يراني المبعوث إلى العراق" بصرف النظر عما يخطر ببالك، الحاكم الأول، وكل ذلك. داخل الإدارة، داخل الدفاع، كان يُنظر إليّ كما لو كنتُ ميكي نيكياً. "لقد استأجرنا هذا الزبون". من المؤكد أنني لم أتمتع قط بالمكانة التي أضفها علي العالم الخارجي.

بعد بضع ساعات عاود رمسفلد الاتصال بغارنر، اتصل مرة أخرى. كان الرئيس قد سافر إلى ليما الأوهايوية، ذلك اليوم لإطلاق نوع من الحملة في مصنع لإنتاج دبابات ام 1 آبرامز الحربية الرئيسة حيث كان بوش قد خص جي بمديح استثنائي. قال الرئيس: "تابعنا العمل من خلال فريق برئاسة هذا الرجل غارنر الذي لم يكن لديه سوى هدف طاغٍ واحد تمثل بترك دولة حرة بأيدي شعب حر". كذلك كال المديح لدبابة آبرامز التي تزن 70 طناً وتبلغ كلفتها 4.3 مليوناً من الدولارات قائلاً إنها "العربة الأكثر أمناً لأربعة مقاتلين، على درجة من الدقة تكفي لحماية الحياة البريئة". ثمان مئة ام 1 كانت قد عبرت الحدود في الشهر الماضي لدى اجتياح العراق.

اتصل رمسفلد بآندي كارد ليشكو من اختيار مصنع دبابات آبرامز في ليما للزيارة الرئيسية فدبابة آبرامز هذه كانت شيئاً من الماضي، بدلاً من ذلك السلاح الخفيف، السريع، المتحول العائد للمستقبل. كان الرئيس يبعث بالرسالة الخطأ. تعين عليهم أن يتحدثوا بصوت واحد ويركزوا على: التحوّل! ما كان لهذا الخطأ أن يقع حين كان رئيساً لجهاز العاملين" قال لكارد.

فكر كارد بينه وبين نفسه: لا يُصدق. فقد رمسفلد عقله. لم يكن الرجل الوزير في السلسلة لعسكرية للقيادة وحسب، بل وكان يخاطر بكل ما تنطوي عليه هذه القيادة من قيمة.

اكتشف كارد أنه كان يستطيع أن يتصل بوزراء آخرين – باول مثلاً – ليطلب منهم أن يتعاونوا مع الإدارة وينفذوا أوامر وطلبات رئاسية. أما رمسفلد فلا.

كان بريمر قد أيد القرار القاضي بغزو العراق بقوة. كان يرى أنه الحل الأخلاقي الوحيد، أن أسلحة الدمار الشامل المزعومة شكلت تهديداً مباشراً، مؤكداً. وقد كتب لاحقاً أنه في نيسان/ابريل كان قد تلقى اتصالاً من كل من وولفوفيتز وليبي سكوتر (الدراج) لمعرفة مدى استعداده لتولي إدارة عراق ما بعد الحرب. قالا له إن غارنر لم يكن مرشحاً لتولي رئاسة عملية إعادة البناء على الإطلاق. كانا بحاجة إلى شخص يعرف معنى الدبلوماسية والسياسية.

حصل بريمر على مباركة زوجه وسرعان ما جرى تمكينه من التحدث مع رمسفلد الذي كان قد عرفه منذ عملهما في إد ره فورد. ثم ما لبث أن قابل الرئيس بعد مدة قصيرة.

سأله بوش، حسب الرواية البريمرية: "ما الذي يجعلك ترغب في شغل هذا المنصب المستحيل؟"

"يكمن السبب، يا سيادة الرئيس، في إيماني بأن أمريكا قد حققت إنجازاً عظيماً بتحريرها للعراق. وأنا أعتقد أنني أستطيع أن أساعد".

في بغداد، قوبل وصول بريمر الوشيك بنوعٍ من الصدمة.

حين علم أبي زيد بالنبأ من غارنر علق قائلاً: "ما الذي يدفعهم إلى الإقدام على مثل هذا التصرف اللعين؟"

"أنا لا أعرف الجواب يا جون".

فوجئ ماك كيرنان. قالت تاتوايلر إنها صُعقت. أطلقت روبن رافيل صرخة "هل تستطيعون أن تصدقوا هذا؟" تعبيراً عن الدهشة.

"كف عن المزاح يا رجل!" قال ديريتا حين أبلغه غارنر. لم يقلق إزاء القرار القاضي بالتحول إلى دبلوماسي أكثر خبرة، بمقدار ما استفزه الأسلوب غير اللائق الذي تم اعتماده. "لا يمكن لذلك أن يكون صحيحاً".

قال ديريتا لوولفوفيتز: "ليس هذا تصرفاً جيداً يا بول". يشي الأمر بأن غارنر كان قد أخفق. "أعني أنها مشكلة. لابد لأحدهم من أن يظهر أمام الملأ اليوم ويفسر الأحداث الجهنمية الجارية".

غير أن القرار كان قد اتُّخذ وانتهى الأمر ولم يكن أحد مستعداً لأن يبادر إلى التفسير.

هرع غارنر إلى خليلزاد، المبعوث الرئاسي، ولاذ به. قال: "إن بريمر قادم إلى هنا وأنا موشك على الرحيل".

"مَنْ؟"

"جَري بريمر".

"ما الذي تعنيه حين تقول إنه قادم إلى هنا؟"

"إنه آت إلى هنا ليكون المبعوث الرئاسي".

"إذن أنا راحل".

"لا أعتقد أنك تستطيع أن ترحل يا زال" علق غارنر. "أنت وثيق الصلة بالمكان. أنت شخص بالغ الأهمية. لا تستطيع أن تغادر".

إلا أن خليلزاد رحل مباشرةً. وكان سيعود بعد سنتين سفيراً للولايات المتحدة في العراق.

اتصل غارنر برمسفلد مستفهماً عن إمكانية تأجيل وصول بريمر عدداً من الأشهر.

قال غارنر متوسلاً: "ثمة أشياء كثيرة على النار وأعتقد أنني أستطيع إنجازها جميعاً في حلول الفاتح من تموز/يوليو".

رد عليه رمسفلد: "لا أستطيع ذلك. ليس الأمر من اختصاصي".

حين ذهب غارنر إلى مكتبه صباح اليوم التالي كان جرس الهاتف يرن.

مردداً صدى صوت رمسفلد، ولكن مع مهارة دبلوماسي، كان بريمر يقول: "إنك تقود بعمل عظيم هناك" على الطرف الآخر من الخط.

"البصريات هنا في الصحف ليست على ما يرام،" قال بريمر في مخابرة لاحقة. كانت شاشات التلفزيون وصفحات الجرائد ملأى بصور النهب والفوضى.

رد عليه غارنر: "إذا كنت، يا جَري، ستحاول إدارة العراق بالاستناد إلى ما تقوله **الواشنطن بوست**، فأنت في ورطة لها أول وليس لها آخر". ثم أضاف أنه لم يكن يعرف ما تقوله الصحف، معلقاً أن التيار الكهربائي كان مقطوعاً في تلك اللحظة.

"صحيح، غير أن عليك أن تتدبر أمرك مع العدسات" كرر بريمر "مازلت مضطراً للاهتمام بما يقال عنك".

"تستطيع أن تفعل ذلك بعد أن تأتي إلى هنا".

كان فريق غارنر يحاول أن يعمل في أبنية تعرضت للتمزيق؛ 17 من 23 وزارة كانت شبه مدمرة. كانت الأبواب، الملابن، النوافذ، أطر النوافذ، التمديدات الصحية والتمديدات الكهربائية مخلوعة من أماكنها. في بعض الحالات كان اللصوص قد أشعلوا النار بهياكل المباني المنهوبة والمعراة. السخام، القمامة، القذارات والفضلات البشرية كانت تغطي أرضيات الغرف. كان موظفو الوزارات قد هربوا. بعض عناصر فريق غارنر

كانوا قد خرجوا إلى أحياء بغداد للبحث عنهم سائلين من يصادفونهم عشوائياً: "هل تعرف أحداً ممن كانوا يعملون في وزارة النقل؟" أو "هل تعرف أحداً من وزارة الصحة؟".

أواخر نيسان/ابريل همس مترجم لبناني كان يعمل في وكالة الاستخبارات المركزية في أذن العقيد بول هيوز، نصف "المؤسسة الحقوقية" المؤلفة من شخصين لدى غرينر: "هل رأيت هذه؟"

عرض المترجم اللبناني على هيوز وثيقة من صفحة واحدة، ترجمة إنجليزية لتوجيه كان قد صدر عن قيادة المخابرات، جهاز استخبارات صدام.

أوردت المذكرة 11 نقطة كانت المخابرات مطالبة بأن تبادر إلى تنفيذها "في حال سقوط قائدنا المحبوب، لا سمح الله". كل خلية بعثية محلية، كل فرقة فدائيين، وكل عنصر عميل للمخابرات؛ كل طرف من هذه الأطراف سيكون مكلفاً باغتيال العملاء، إشعال النار بمباني الوزارات، النهب، حرق الوثائق العامة - باقتراف كل ما من شأنه أن يفضي إلى الفوضى. لم تقل الوثيقة شيئاً عن العنف الطائفي، عن استغلال الانقسامات فيما بين الشيعة، الأكراد والسنة. كانت تقول إن كل أعضاء حزب البعث المستقلين كانوا مكلفين بابتداع الأسلوب المناسب من أجل تحويل الحياة إلى جحيم إذا ما سقطت حكومة صدام.

صُعق هيوز. رأى أن القوات الأمريكية وقوات التحالف كانت في مواجهة ما هو أخطر بكثير مما تصورته.

في كتابه، يتذكر بريمر أن وثيقة مشابهة عُرضت عليه، ولكن بعد ثلاثة أشهر أخرى، أواخر تموز/يوليو أو أوائل آب/أغسطس. وهذه المذكرة المخابراتية المؤرخة في 22 كانون الثاني/يناير 2003 التي عُرضت على بريمر، كانت موجهة "إلى جميع الإدارات والأقسام" ومرفقة بخطة طوارئ عما يجب عمله إذا ما تعرض البلد للغزو. بدأت المذكرة بعبارة "أشعل النار بهذا المكتب" ثم تابعت كلامها لتصف استراتيجية قائمة على "التخريب والنهب" والإيعاز للمرؤوسين بـ "نشر العملاء في جميع البلدات. تدمير محطات الطاقة الكهربائية وشبكات المياه. التسلل إلى المساجد، والمزارات الشيعية المقدسة".

"لا أستطيع تصديق أن يكون ذلك "لوغد، ابن الكلبة، قد فعل هذا،" قال الجنرال ميرز في الغرفة المعروفة باسم الدبابة في البنتاغون. لم يستطع ميرز هذا أن يتصل بالجنرال فرانكس للحصول على أجوبة لأسئلته أخفق في الاتصال حتى عبر الهاتف

الخليوي. ثم ما لبث أن سمع بأن فرانكس كان يريد ترك منطقة القتال والمجيء إلى واشنطن لحضور حفل عشاء البيت الأبيض للمراسلين في 26 نيسان/ أبريل. ترك ساحة حرب من أجل حضور حفلة. طار العقل من رأس ميرز. تعين على رمسفلد أن يوعز لفرانكس بألا يحضر.

كان ماركس العنكبوت يعيش التحدي الذي كان قد لخصه لشباب جهاز استخبارات الدفاع في البنتاغون قبل ستة أشهر. لم يعد مهماً ما إذا كان الإخفاق في العثور على أسلحة الدمار الشامل مشكلة استخباراتية أو قضية عملياتية. تمثلت الحقيقة البسيطة بأنهم لم يكونوا يعثرون على أي شيء. وفي لحظة إحباط، ألقى باللوم كله على كاهل قيادة الجنرال فرانكس المركزية. وحين بقي عاجزاً عن تقاسم جحيمه الشخصي مع معلمه ورئيسه، فقد تعين عليه أن ينفّس عن همومه في مكان آخر.

كتب ماركس في دفتر يومياته الحربية يوم 28 نيسان/ أبريل مختزلاً بعض الكلمات إلى أقل من النصف: "إنهم نائمون غافلون عن حافة الهاوية. لم يكن أحد يترقب أو ينفذ المستلزمات التفصيلية ذات العلاقة بأسلحة الدمار الشامل. يا لهم من بلهاء! غير قابل للتصديق".

في اليوم نفسه، علم ماركس أن استخبارات الدفاع كانت عازمة على تولي مهمة البحث عن أسلحة الدمار الشامل. ومجموعة مسح العراق، كما كانت المحاولة ستُسمى، كانت ستخضع لقيادة جنرال نجمتين يدعى كايث دايتون، رئيس قسم الاستخبارات البشرية في جهاز استخبارات الدفاع.

اتصل ماركس مع دايتون. أبلغه: سيتعين عليك إنجاز برنامج تنسيقي هائل، غير أنك ستستطيع، إذا كنت متمتعاً بسلطة مكتب وزير الدفاع، أن تزيح الأشياء من أمكنتها فتهتدي إلى بعض أسلحة الدمار الشامل. "بعد مجيئك ستكتشف أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً".

رد عليه دايتون قائلاً أنه يؤجل سفره إلى العراق لحضور تخرج ابنه في الجامعة، بمعنى أن احتمال تلاقي ماركس ودايتون كان ضعيفاً.

طار رمسفلد إلى العراق في 30 نيسان/ أبريل. رأى الغموض كله على الأرض بأم عينه. انتهى ولم ينته. ألقى كلمة أمام 1000 جندي من فرقة المشاة الثالثة في إحدى حظائر الطائرات في المطار.

قال: "لقد أنقذتم أمة. لقد حررتم شعباً. لقد أطحتم بدكتاتور ظالم واضعين حداً للخطر الذي كان يشكله بالنسبة إلى أمم حرة. لقد تحديتم فرق الموت وأعاصير الرمل، قاطعين مئات الأميال للوصول إلى بغداد في أقل من شهر". لم يستطع مقاومة إغراء التنديد بأولئك الذين كانوا قد كتبوا أو قالوا إن الحرب سارت بوتيرة أبطأ مما توقعتها الإدارة. "بعضهم أطلق على ذلك اسم المستقع".

تقليدياً، كان الاستيلاء على عاصمة العدو يعني النهاية. لذا فإن رمسفلد وآخرين - بمن فيهم حتى غارنر - كانوا شاعرين بقدرٍ كبير من القوة. تفوه غارنر أمام المراسلين بعدد من التعليقات التي كانت غير واقعية كلياً، ومما قاله: "ليس ثمة مشكلات بنية تحتية كثيرة، باستثناء إعادة وصل بعض الشبكات".

وجه رمسفلد رسالة فيديو متفائلة لتُبث من طائرة عمليات سولو السايكولوجية العسكرية قال فيها: "لأكن واضحاً: العراق ملك لكم. نحن لا نريد تملّكه". ربما محاولاً دحض إنذار باول الذي تضمن احتمال قيام الولايات المتحدة بوضع اليد على العراق. ثم أضاف: "سنبقى الفترة الضرورية اللازمة لتمكينكم من امتلاك العراق - دون زيادة ولو ليوم واحد".

في إحدى المقابلات اللاحقة اعترف رمسفلد بأنه كان يدرك أن "البنية التحتية العراقية كانت قد عانت من الإهمال عقوداً من الزمن. زرت إحدى المحطات الكهربائية كما أستطيع أن أتذكر. كان مثبتاً بالعلك والشكلات وأشرطة الربط. نظرت إلى المحطة وقلت "يا إلهي مدة ثلاثين سنة أوصلت الأوضاع إلى هذه الحالة". كان حكم صدام قد دام 30 سنة. "سيستغرق خروجنا من هنا 30 سنة - سيستغرق إخراج ذلك - لا نحن - من هذه الحالة وتمكين العراقيين من أن يعودوا شبيهين بالكويتيين أو الأردنيين أو السعوديين أو الأتراك أو جيرانهم. وقلت أقسم بأن من شأن ذلك أن يبقيهم مشغولين فترة طويلة من الزمن، لأن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً. أنت لا تستطيع - وهم متوفرون على الثروة. إنهم متوفرون على الماء؛ متوفرون هم على النفط. لديهم شعب مجتهد - من الواضح أنهم هم الذين سيتعين عليهم أن يبادروا إلى العمل لإنجاز تلك المهمات".

كذلك اجتمع رمسفلد سراً مع غارنر ليحدثه عن قدوم بريمر الوشيك.

قال رمسفلد: "أريدك أن تبقى هنا، تابع العمل. إنك تقوم بعمل عظيم أريد أن تساعد جَري على الإحاطة بالعمى الجديد وبكل ما له علاقة".

وعده غارنر: "سأبقى لبعض الوقت، غير أن بقائي لن يطول".

كان بوش وأركانه في حالة شبيهة بالدوار. فَكَتَبَةُ خطب الرئيس، بمن فيهم مايكل غيرسون، سوّدوا مشروع كلمة تردد أصداء استسلام اليابان على ظهر البارجة الحربية **يو اس اس ميزوري** عند انتهاء الحرب العالمية الثانية. اقتبست المسودة عبارة الجنرال ماك آرثر المأثورة - "المدافع صامتة" - كما اشتملت، حسب رواية رمسفلد، جملة "مهمة تم إنجازها".

البارجة **ميزوري** لم تكن متوفرة - إنها الآن ذكرى في بيرل هاربر الهوايية - إلا أن حاملة الطائرات **آبراهام لنكولن** كانت راسية قريباً من شواطئ سان دييغو.

يقول رمسفلد متذكراً: "قمت بحذف جملة "مهمة تم إنجازها". كنت في بغداد عصوني نسخة وكدت أموت حين قرأتها. قلت إنها مفرطة في الشمول. ضبطتها وأعدتها. قاموا بتصحيح الخطاب ولكنهم لم يتدبروا أمر اللافتة".

في الأول من أيار/مايو هبط طيار حرس تكساس القومي السابق، بوش، هبوطاً مسرحياً على ظهر حاملة الطائرات **لنكولن**، ممتطياً المقعد الثاني لطائرة حربية عضادة للغواصات تابعة للبحرية. فيما بعد، مبدّلاً زي الطيران العسكري بطقم وربطة عنق، تحدث إلى الأمة والعالم، واقفاً أمام 5000 من الطاقم تحت لافتة عملاقة حملت عبارة "مهمة تم إنجازها". كان طاقم **لنكولن** قد أُبلغ عبر شبكة مكبرات الصوت الخاصة بالخطب العامة الرسالة التالية: "مسموح لكم أن ترفعوا أصوات هتافاتكم إلى الحدود القصوى الممكنة، وتشجعوا على التعبير عن تأثركم وحماستكم" بعد نزول الرئيس رسمياً على ظهر السفينة. لاحقاً زعم البيت الأبيض أن فكرة لافتة "مهمة تم إنجازها" جاءت من البحرية. كان رمسفلد أول من قالوا: إن جملة "مهمة تم إنجازها" كانت موجودة في مسودة خطاب البيت الأبيض.

مقدماً طبعة الخطاب المنقّحة، الحائزة على موافقة رمسفلد، أعلن بوش أن "العمليات القتالية الرئيسة في العراق قد انتهت". توقف عند حافة إعلان الانتصار الرسمي في العراق، لا بسبب اعتراض رمسفلد وحسب، ولكن أيضاً، جزئياً، بسبب المصاعفات التي من شأن مثل ذلك الإعلان أن ينطوي عليها في ظل القانون الدولي. قال بوش: "في معركة العراق كانت الغلبة للولايات المتحدة وحلفائنا. والآن بات تحالفنا منخرطاً في ضمان أمن ذلك البلد وإعادة بنائه".

أطلق الرئيس إشارة أن مرحلة جديدة من العمل بادئة. "أمامنا عمل صعب نقوم به في العراق. عاكفون نحن على جلب النظام إلى أجزاء من ذلك البلد مازالت خطرة إننا نتعقب قادة النظام القديم ونلقي القبض عليهم تمهيداً لمحاسبتهم على جرائمهم. لقد بدأنا البحث عن الأسلحة الكيميائية والبيولوجية المخبوءة، وبتنا نعرف مئات المواقع التي ستتم معاينتها. نمد يد المساعدة لإعادة إعمار العراق، حيث دأب الدكتاتور على بناء القصور لشخصه، بدلاً من المشافي والمدارس للشعب. سندعم قادة العراق الجدد في سعيهم لتأسيس حكم الشعب العراقي، من قبله ولمصلحته. سيستغرق الانتقال من الدكتاتورية إلى الديمقراطية وقتاً، ولكن الأمر جدير بكل جهد. تحالفُنا سيبقى إلى أن يتم إنجاز عملنا. وبعد ذلك سنغادر تاركين وراءنا عراقاً حراً".

في بغداد كانت إحدى طابعات فريق غارنر الكمبيوترية تهمهم قاذفة نسخٌ من **الرسالة الإخبارية لفرق الوزارات** المؤرخة في 2 أيار/مايو. كانت الرسالة ترهيناً داخلياً لأوضاع الوزارات.

تمثل مشروع رئيس بـ "العمل على توفير كميات من الألواح البلاستيكية وبكرات اللصق لاستخدامها في تغطية النوافذ المحطمة وسد الثقوب الحاصلة في المباني" وزارة الداخلية – تلك المؤسسة المسؤولة عن الاستخبارات، الأمن وقوات الشرطة – كانت خارج السيطرة مئة بالمئة. قالت الرسالة الإخبارية: "مبنى مقر القيادة مشغول من قبل إحدى العائلات أو العشائر. بحاجة إلى استعادته من الشاغلين ووضعه تحت سيطرة الشرطة". وزارة الزراعة كانت مفتقرة إلى الأمن ومتعذرة الافتتاح ما لم يتم توفير جهاز حراسة. "ثمة طائفة إسلامية في المبنى يجب إخراجها؛ العاملون لن يعودوا دون الإخلاء وتوفير الحراسة". حتى المكتبة الوطنية كانت "محتلة من قبل جماعة دينية؛ موظفو الوزارة يطالبون بإخراج الجماعة وتوفير الأمن".

تلقى غارنر في 4 أيار/مايو تقريراً يقول في بدايته: "مازال الأمن هو الهاجس الأول لدى جميع الوزارات وكبار المستشارين.... مازالت الجولات المبرمجة على الوزارات تتعرض للإلغاء بسبب عدم كفاية أعداد المرافقين من الجيش والشرطة؛ وقد أكد المستشارون أن من شأن عمليات الإلغاء هذه أن تقوض مصداقيتهم لدى أرتان الوزارات ولاسيما لأن المستشارين نادراً ما يستطيعون التواصل مع الأركان لإطلاعهم على الأحداث المتغيرة". المستشارون الأمريكيون لم يصلوا إلى مبنى وزارة الدفاع، لمرة

الأولى، إلا بعد نحو شهر من سقوط حكم صدام، ليكتشفوا أنها كانت ضحية عمليات نهب كبيرة. ثمة كان إطلاق نار في الشوارع عند وصولهم. سارع الفريق إلى شحن ألف رطل من الوثائق المصنفة "سري جداً" حسب ما جاء في التقرير، ولكن مزيداً من الوثائق وبأعداد وكميات كبيرة كانت سائبة دون أي تجميع أو تصنيف.

وثيقة أخرى تبدأ بعبارة: "**مذكرة تخص المدير**"، وهي مؤرخة في 6 أيار/مايو، كتبها العقيد بول هيوز بالأسلوب الرسمي المعتمد في المراسلات العسكرية. "الموضوع: لقاء مع ضباط من الجيش العراقي - **مذكرة إعلامية**".

قبل يوم واحد، كان هيوز قد اجتمع مع مجموعة من كبار ضباط الجيش العراقي زعمت تمثيل نحو 30.000 من الضباط والجنود والمدنيين العراقيين التابعين لوزارة الدفاع. عقيد يدعى مرجان ضياء تولى مهمة ترجمة كلام المجموعة.

كتب هيوز يقول إن هؤلاء الضباط العراقيين وغيرهم، قاموا "قبيل الحرب وفي أثنائها بنقل أعداد من كمبيوترات وزارة الدفاع وملفاتها إلى بيوتهم". وكانوا الآن قد سمعوا أن التحالف عازم على دفع مبلغ 20 دولاراً مساعدة طارئة لكل موظف في الوزارات الأخرى، ويأملون في الحصول على المعونة نفسها للجنود السابقين. كان بين الضباط لواء كان يشغل منصب المفتش العام في الجيش العراقي. سجلات الرواتب والمعاشات كلها كانت موجودة، وكانت المجموعة "مستعدة لإعطاء كل المعلومات المتوفرة لديها إلى التحالف".

كتب هيوز أنه أوضح للمجموعة أن من المتعذر تزويدها برواتب منتظمة، غير أن دفعة الـ 20 دولاراً الطارئة قد تكون ممكنة. "كذلك أبلغتُهم بأن هذا المال هو مال عراقي أساساً وتتم إعادته إليهم، الأمر الذي أغرق الجميع في بحر من العرفان بالجميل".

اجتمع هيوز مع الضباط العراقيين ثانية بعد يومين، وكانت قائمة الجنود العراقيين الذين جرى الزعم بإمكانية تنظيمهم قد تورمت حتى أصبحت 137 ألفاً. في 8 أيار/مايو تم عداد وثيقة لتوقيعها من قبل عضو آخر في فريق غارنر، هو الميجر جنرال كارل ايه ستروك، الذي كان مضطلعاً بمنصب المستشار الانتقالي لوزارة الدفاع، مجيزاً عمل الجنرالات العراقيين مع التحالف في المبنى البغدادي الذي كان فريق غارنر يتخذه مقراً لقيادته. بدأت الكمبيوترات تنسخ صفحات قوائم أسماء الجنود العراقيين صفحة بعد أخرى. بدا هيوز غارقاً في بحر من النشوة معتقداً بأنه كان قد تعثر بفرصة كسب

الجيش العراقي السابق إلى صف التحالف مع تمكينه من الحفاظ على بعض ماء الوجه. إنه الحل الذي كان الجنرال غرانت قد ابتكره في الحرب الأهلية (الأمريكية) بعد استسلام لي بعد موقعة آبوماتوكس، كما رأى هيوز. بدا تحرير العسكريين عن الجيش العراقي والإفادة منهم ومن عملهم في مجتمع ما بعد صدام أمراً ممكناً مقابل 20 دولاراً للرأس – أقل من 3 ملايين بالنسبة إلى جميع أولئك الذين وردت أسماؤهم في القوائم.

لم يكن ينقص هيوز سوى المال.

19

لم يتوفر لجَري بريمر سوى أسبوعين اثنين من اجتماعه الأول مع بوش في المكتب البيضوي وحتى مغادرته إلى العراق. ورغم استناده إلى حياة عملية طويلة في السياسة الخارجية ومحاربة الإرهاب لم يكن بريمر هذا أحد خبراء شؤون الشرق الأوسط. من حيث الجوهر، كان عاكفاً على تشكيل فريق تجميع أو لملمة جديدة لإحلاله محل فريق غارنر الململم. إن القضية التي كان من شأنها أن تحدد مصير رئاسة بوش كانت تعالج من قبل سلسلة من الفرق المجمَّعة لملمة عشوائية.

في إحدى المحطات بادر جيمس دوبنز، خبير ما بعد النزاعات وموظف الخارجية السابق الذي كان يعمل لدى مؤسسة راند RAND، إلى تزويد بريمر بمسودة دراسة قدرت حاجة عراق ما بعد الحرب بـ 500.000 جندي، ثلاثة أضعاف العدد الحالي.

أرسل بريمر خلاصة للمسوَّدة إلى رمسفلد مع مذكرة مرفقة تقول: "أعتقد أن علينا أن ندرس هذه". لم يتلق أي رد، كما لم يحاول المتابعة.

بعد الواحدة من بعد ظهر يوم 6 أيار/مايو، مع بريمر بجانبه في المكتب البيضوي، أعلن بوش رسمياً تعيين بريمر مبعوثاً رئاسياً إلى العراق. قال بوش: "إنه شخص يستطيع أن يفعل" مضيفاً أحد أعظم إطراءاته. "ينطلق السفير من البركات الكاملة لهذه الإدارة والثقة الكاملة لجميع أعضاء هذه الإدارة بإمكانية إنجاز المهمة". دأبت الصحافة عموماً على وصف بريمر رجل محافظ، أنيق المظهر، على النقيض من غارنر غير الرسمي، وغير المبالي بمظهره.

وقبل المغادرة بأربعة أيام، تناول بريمر طعام الغداء مع بوش وحده في البيت الأبيض. أثار مسألة "القيادة"، ولكن ليس فيما يخص الجيش، كما سبق لباول وآخرين أن فعلوا. كتب بريمر فيما بعد: "لم يكن بوسعي أن أنجح لو بقي آخرون في العراق يقـلون أيضاً إنهم يمثلون الرئيس". وقد عنى زالماي خليلزاد، مسؤول مجلس الأمن القومي الذي كان لا يزال يحمل لقب "مبعوث رئاسي" تحديداً.

عبر بوش عن تفهمه وموافقته. وحسب رواية بريمر فإنه أتى أيضاً على ذكر دراسة الراند الداعية إلى إرسال قوة مؤلفة من 500.000، ولكن لم يتلق رداً ولم يابع الموضوع مع الرئيس.

بعد الغداء قام بوش باصطحاب بريمر إلى المكتب البيضوي للاجتماع مع كل من رمسفلد، باول، رايس وكارد. ما إن دخلوا، الواحد بعد الآخر، "حتى أجلسني بوش على الكرسي القريب منه ومزح قائلاً: "لا أعرف ما إذا كنا بحاجة إلى هذا الاجتماع بالمطلق. جَري وأنا عقدنا واحداً للتو".

كتب بريمر يقول: "رسالته كانت واضحة. لم أكن تابعاً لأي من رمسفلد أو باول كنت تابعاً للرئيس".

في 9 أيار/مايو، قام بوش بتثبيت ذلك خطياً، إذ عين بريمر مبعوثاً له "يقدم تقاريره عبر وزير الدفاع". كان مسؤولاً عن الجميع باستثناء رمسفلد والجنرال فرانكس.

في ذلك اليوم التقى بريمر كلاً من فايث ونائبه وليم لوتي، وهو نقيب بحري متقاعد ومن العاملين المخضرمين في مكتب تشيني.

مشيراً إلى كتاب تعيينه الصادر عن رئيس الجمهورية، قال بريمر: "كتابي معي". وربت متباهياً على جيب صدر سترته.

كان لدى فايث مسودة أمر يقضي باجتثاث البعث، ويتذكر بريمر أن فايث كان موشكاً على الإيعاز لغارنر بإصداره.

يقول بريمر إنه تدخل قائلاً: "انتظر دقيقة. موافق أنا على أنه إجراء بالغ الأهمية، نعم شديد الأهمية إلى درجة أعتقد أنه يجب أن ينتظر إلى أن أصل إلى هناك". لاحقاً تذكّر بريمر أن فايث وافق وأمر بتنفيذه "حتى إذا تمخض تطبيقه عن نوع من الحلل الإداري". أما فايث فيتذكر من جانبه أن بريمر كان هو المتحمس لإصدار أمر اجتثاث البعث مع أمر آخر قضى بحل الجيش العراقي.

كان رون آدمز، نائب غارنر قد أصيب بالتهاب رئوي حاد أوائل نيسان/أبريل تم إخلاؤه وإعادته إلى الولايات المتحدة للاستشفاء. استأنف عمله، وهو في طور النقاهة، ضابطُ ارتباط لغارنر في البنتاغون.

في إحدى مكالماته اليومية مع غارنر قال لمعلمه: "كل شيء قد تغير هنا. إنهم لا يحبوننا".

بعد شهر، سُمح لآدمز أخيراً بالسفر للعودة إلى الشرق الأوسط، وطار إلى الكويت في 6 أيار/مايو. تطلب مجرد حصول جنرال الثلاث نجوم المتقاعد ونائب مدير التنظيم الذي كان لا يزال رسمياً مسؤولاً عن عراق ما بعد الحرب على مقعد في إحدى الطائرات العسكرية لقطع مسافة الـ 350 أو نحوها الفاصلة بين الكويت وبغداد، انتظاراً ثقيلاً ومخيباً دام أربعة أيام.

مادة أخرى في مذكرات ماركس العنكبوت الحربية تبدأ بعبارة: "يوم الأحد الواقع في 11 أيار/مايو، دال + 53 [اليوم الثالث والخمسين للحرب]، لا أسلحة دمار شامل".

بات أوان القلق بشأن الأمر متأخراً كثيراً تقريباً. لم يعد ثمة شيء من قبيل الإحجام عن غزو العراق. كانوا لا يزالون ملزمين بمواصلة الاندفاع ومعاينة المواقع الـ 946 الواردة في القائمة، وإن بات متأكداً مئة بالمئة من عدم وجود أي شيء يمكن العثور مثلما سبق له أن كان متأكداً من وجود الأسلحة.

قام العقيد روتكوف بتلخيص الوضع شعراً:

أين هي أسلحة الدمار الشامل؟

ويل له إذا لم يعثر على أي شيء

مؤسف حقاً

في أيار/مايو، طار غارنر إلى قَطَر للقاء بريمر في مقر قيادة فرانكس. تصافحا مصافحةً قصيرة، وبعد إيجاز عسكري روتيني مختصر، سلّم غارنر بريمر نسخة من قائمة الأهداف الرئيسة العشرة المطلوب إنجازها قبل الفاتح من تموز/يوليو.

"أوكي" قال بريمر: "شكراً".

كان الجنرال ميرز قد طار مع بريمر إلى قَطَر في الطريق إلى العراق. كان يريد الالتفاف على القرار القاضي بتعيين بريمر، ويرى أن غارنر كان يجب أن يبقى في مكنه بوصفه الرجل المدني الثاني بعد الجنرال فرانكس.

لاحقاً دار حديث وراء الكواليس بين ميرز وغارنر. قام غارنر بتأكيد رأيه القائل بتعين أبي زيد قائداً عسكرياً لبغداد، ولكن بعد منحه نجمة أخرى تعظيماً لمرجعيته.

قال غارنر: "انقلوا أبي زيد إلى هنا قائداً موحداً فرعياً. ليتول بريمر الشؤون المدنية. ليبق ماك كيرنان هنا. لديه جهاز عظيم". عندئذ كان أبي زيد يستطيع أن يضطلع بدور الحكم في النزاعات الحتمية الناشبة بين بريمر وماك كيرنان. كان فرانكس موهكاً على التقاعد، وكان قد غادر العراق. كان أبي زيد هو الرجل المناسب للمهمة.

أقر ميرز بصواب الفكرة قائلاً لغارنر: "أتفق معك، غير أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً على ذلك الصعيد". كان قد قدم الاقتراح نفسه إلى رمسفلد. الوثيقة البنتاغونية الخاصة بالانتقال من السيطرة العسكرية إلى الحكم المدني لم تتضمن أي موعد لعيب محدد. وفكرة تنصيب بريمر حكماً هذه كانت تُطبق أسرع مما ينبغي برأي ميرز الذي أضاف ساخطاً: "ناقشنا الموضوع ولكن رمسفلد لم يكن مستعداً لأن يسمع".

أمضى بريمر وغارنر يوماً واحداً في البصرة قبل الانتقال جواً إلى بغداد. تذكر بريمر فيما بعد شعوره عند وصوله إلى العاصمة العراقية قائلاً: "كنت مندفعاً في السيارة على الطريق الموحلة في كتلة من الضباب الكثيف بسرعة 100 ميل في الساعة". تلك الليلة، قام هو وغارنر بحشر نحو 30 من كبار أعضاء جهاز العاملين في إحدى غرف الاجتماعات الصغيرة في القصر المزعوم. بدا بريمر لبقاً إذ عبر عن آيات الشكر لغارنر وفريقه مؤكداً أنهم كانوا أفضل منه إدراكاً للتحديات.

قال بريمر: "التغطية الإعلامية لأعمال النهب السائبة تجعلنا نبدو عاجزين. حين قامت القوات التي كانت بقيادة أمريكا باحتلال هايتي في 1994، قتلت قواتنا ستة لصوص انتهكوا حظر التجول فتوقف النهب. أعتقد أن علينا أن نفعل الشيء نفسه هنا، وإن عنى ذلك تغيير القواعد العسكرية للاشتباك". غير أنه لم يبادر قط إلى العمل على تغيير القواعد للسماح بذلك النوع من إطلاق النار.

نحو الساعة السابعة مساءً، يوم 14 أيار/مايو، وكان يوم بريمر الكامل الأول في بغداد، بادرت روبن رافيل إلى اقتحام مكتب غارنر. سألته:

"هل قرأت هذا؟"

"لا، لم أفعل. لا علم لي بأي جحيم تتحدثين عنه" رد غارنر.

قدمت إليه وثيقة مؤلفة من صفحتين وهي تقول: "إنها خطة لاجتثاث البعث".

قرأ غارنر بسرعة: "الأمر الأول الصادر عن سلطة التحالف المؤقتة: اجتثاث البعث من المجتمع العراقي". كان حزب البعث منظماً على مراتب، وكان الأمر يقول جميع "الأعضاء العاملين" - أولئك الذين هم في المراتب العليا الأربع - كانوا سيزاحون فوراً من مناصبهم ويمنعون من شغل أي وظائف حكومية مستقبلاً. إضافةً إلى ذلك كانت الشرائح العليا الثلاث في إدارة الوزارات سيُحقق معها بشأن الجرائم وبوصفها مصادر خطر أمني.

اعترض غارنر: "لا نستطيع أن نفعل هذا". كان لا يزال متمسكاً بأسلوب الاجتثاث اللطيف، - القائم على الاكتفاء باستئصال البعثي الأول والمسؤول التنظيمي في كل وزارة - ذلك الأسلوب الذي سبق له أن فاتح رمسفلد بشأنه. "إن الأمر أعمق مما يبدو". أضاف غارنر.

"ذلك بالتحديد هو ما يجعل سفرك مستحيلاً،" قالت رافيل.

ما لبث غارنر أن فوجئ بتشارلي، رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية.

سأله: "هل قرأت هذا؟"

"إنه سبب مجيئي إلى هنا" قال تشارلي.

"لنذهب إلى بريمر". اقتحم الرجلان مكتب مدير العراق الجديد نحو الساعة الواحدة بعد الظهر. بادره غارنر: "هذا أخطر وأعمق مما يبدو يا جَري. أعطنا، أنا وتشارلي، ساعة من وقتك. سنفصل الموضوع. سنبين الإيجابيات والسلبيات ثم سنتصل عبر الهاتف مع رمسفلد للتخفيف من الأمر قليلاً".

"مستحيل" قال بريمر "تلك هي توجيهاتي وعازم أنا على تنفيذها".

"يا للهول!" علق غارنر. "لن تكون قادراً على إدارة وتسيير أي شيء إذا غصت في الأمر بمثل هذا العمق".

التفت غارنر إلى تشارلي. سبق لعنصر وكالة الاستخبارات المركزية المخضرم أن تولى رئاسة عدد من المحطات في بلدان شرق أوسطية أخرى.

"ما الذي سيحصل يا تشارلي؟"

رد تشارلي مستنداً إلى ملاحظات دَوَّنَها كيم أولسون، أحد مساعدي غارنر، قائلاً: "إذ أقدمتم على تطبيق هذا فإنكم ستدفعون بما يتراوح بين 30.000 و50.000 من

البعثيين إلى العمل السري قبل حلول الظلام". وأضاف تشارلي أن العدد أقرب إلى 50.000 منه إلى 30.000. "ستقومون بدفع 50.000 إنسان إلى الشارع" إلى العمل السري مفعمين حقداً على الأمريكيين". وهؤلاء الـ 50.000 هم النخبة الأقوى، الأقدر على التواصل في سائر مجالات الحياة.

كرر بريمر وهو يحدّق في تشارلي: "قلت لكما. أنا مزود بتوجيهات، يتعين علي أن أنفذ الأوامر".

اتصل غارنر برمسفلد وحاول إقناعه بإعادة النظر في العمق وبتلطيف لغة الأمر.

رد رمسفلد: "لم يصدر الأمر عن هذا المبنى. لقد جاء من مكان آخر".

قدر غارنر أن المقصود هو البيت الأبيض، مجلس الأمن القومي أو تشيني. غير أن أمر اجتثاث البعث كان، برأي مشاركين آخرين، ابتكاراً بنتاغونياً خالصاً، وإن بقي إملاء غارنر بأنه صادر عن طرف آخر منطوياً على فائدة تمكين رمسفلد من إغلاق باب النقاش.

في اليوم التالي، يوم 15 أيار/مايو، جلبت روبن رافيل مسودة أمر آخر إلى غارنر. كانت هذه مسودة الأمر رقم 2 ، القاضي بحل وزارتي الدفاع والداخلية العراقيتين، الجيش العراقي كله، وكل حرس صدام الشخصي إضافةً إلى سائر المنظمات شبه العسكرية.

صُعق غارنر. أمر اجتثاث البعث كان غبياً، أما هذا فكان كارثة حقيقية. كان غارنر قد أبلغ الرئيس وكل مجلس الأمن القومي بوضوح وصراحة عن اعتماد خطة تقضي باستخدام الجيش العراقي - أقله 200.000 إلى 300.000 جندي - عموداً فقرياً لجيش يتولى إعادة بناء البلد ويوفر الأمن. وقد دأب على تقديم تقارير دورية عبر الدائرة التلفزيونية الآمنة إلى رمسفلد في واشنطن عن هذه الخطة.

يضاف إلى ذلك أن العقيد هيوز كان يواصل عقد اجتماعات مع جنرالات عراقيين سابقين مصطحبين قوائم بأسماء نحو 137.000 جندي من الراغبين في الالتحاق مجدداً بوحداتهم السابقة أو الانتساب إلى وحدات جديدة مقابل حصول كل منهم على دفعة طارئة بمبلغ 20 دولاراً. كذلك كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد وضعت قوائم وراحت تلتقي أعداداً من الجنرالات تمهيداً لإعادة تأسيس الجيش العراقي. إن الجيش العراقي السابق كان يبعث بأعداد متزايدة من الإشارات الدالة على استعداده التام للعودة إلى الخدمة بهذا الشكل أو ذاك.

ذهب غارنر، لليوم الثاني على التوالي، للقاء بريمر. قال مؤكداً: "دأبنا باستمرار على وضع خطط لاستعادة الجيش". هذه الخطة الجديدة جاءت من الفراغ، ناسفة ثمار جهود دامت شهراً.

رد عليه بريمر: "حسناً، لقد تغيرتْ الخطط. تتمثل الفكرة بأننا لا نريد مخلفات لجيش القديم وبقاياه. نريد جيشاً جديداً و"طازجاً"".

"صحيح يا جَري أنك تستطيع أن تتخلص من أي جيش في يوم واحد" غير أن بناء جيش جديد يستغرق سنوات من الزمن، قال غارنر ساعياً إلى شرح أن الأمر لم يكن مقتصراً على جندي في الميدان، أو تجميع عُصبة من حملة البنادق. "فأي جيش هو مجمل العملية المطلوبة لتجهيزه وتدريبه وإعالته وتمكينه من الاستمرار". هز بريمر رأسه.

قال غارنر: "لا تستطيع الاستغناء عن وزارة الداخلية".

"وما المانع؟"

"بالأمس بالذات ألقيت خطاباً تحدثت فيه أمام الجميع عن مدى أهمية قوات الشرطة".

"صحيح، الشرطة مهمة".

"قوات الشرطة كلها تابعة لوزارة الداخلية. وإذا أصدرت هذا الأمر، فإن الجميع، جميع العاملين في وزارة الداخلية والتابعين لها، سيذهبون اليوم إلى بيوتهم".

بدا بريمر متفاجئاً وطلب من غارنر أن يذهب لبحث الموضوع مع والتر بي سلوكومبي، مدير الدفاع والأمن القومي لدى بريمر. وهذا الأخير، وهو في الـ 62 من العمر، كان مساعد وزير دفاع لشؤون التخطيط خلال الجزء الأكبر من إدارة كلنتون، أي سلف فايث. كان سلوكومبي، خريج رودس، كاتب سابق لدى رئيس المحكمة العليا المعروف ايب فورتاس، وأحد كبار محامي القضايا الضريبية، يشعر بأن الغزو الأمريكي كان يعني بنظر القانون الدولي أن العراق كان خاضعاً للاحتلال العسكري. لم يكن الوضع انتقائياً، ويتعين على الولايات المتحدة ألا تخجل من فرض سلطتها. كان النظام الحكومي قد تفجر من الداخل وكان الجيش العراقي قد تلاشى، حسب رأيه. كان الجميع - العراقيون والولايات المتحدة - بحاجة إلى وجود حكومة وجيش جديدتين في العراق. لم يكن جيش صدام سوى أداة قمع وبرأي سلوكومبي كان من الصعب استخدام مثل هذا الجيش درعاً لأي ديمقراطية جديدة.

إلا أن سلوكومبي وافق على حذف وزارة الداخلية من المسوّدة لتمكين الشرطةمن البقاء. سارع بريمر إلى توقيع الأمر الذي ألغى كل ما له علاقة بالجيش "الربب العناوين أو المواقع". في كتابه المنشور سنة 2006، لم يأت بريمر على ذكر النقاش الذي دار بينه وبين غارنر حول تسريح الجيش العراقي، إلا أنه أفصح عن اعتقاده بأنه لم يكن أي جيش عراقي باقياً على أرض الواقع لدى وصوله إلى العراق. كان الجيشقد "تسرّح ذاتياً". وكتب بريمر يقول: "لم يكن من شأن توقيع أمر إلغاء أجهزة النظام القديم العسكرية أن يرسل جندياً واحداً إلى البيت أو أن يؤدي إلى تسريح وحدة عسكرية واحدة. فذلك كله كان قد حدث قبل أسابيع". كان أيضاً مقتنعاً بأن الأكراد، الذين يكرهون الجيش القديم ويخافونه، كانوا سينفصلون إذا ما تمت استعادة الجيش.

غير أن كلاً من الضباط وضباط الصف الذين شكلوا الجيش العراقي الجديد، خلال السنة التالية، جاؤوا من صفوف الجيش العراقي القديم.

انحشر بريمر في غرفة صغيرة في القصر الجمهوري مع أربعة من مساعديه: سكوت كاربنتر من الخارجية، ذلك الذي كانت ليز تشيني قد جعلته مسؤولاً عن مسألة إدارة العراق؛ ميغان أوسليفان، موظفة وزارة الخارجية التي كانت قد جاءت إلى فريق غارنر مع توم واريك، لا لشيء إلا لتتعرض للمطاردة من قبل مكتب تشيني وأُعيدت خلسة بموافقة رمسفلد وهادلي المضمرة؛ ريان كروكر من وزارة الخارجية؛ وروحان مارتينيز، خريج هارفارد البالغ 24 سنة من العمر الذي كان يعمل لدى فايث في البنتاغون. كان أمام كل من الخمسة نسخة من أمر اجتثاث البعث.

قال بريمر: "الوثيقة مذيلة بتواقيع البيت الأبيض، وزارة الدفاع والخارجية جميعاً. دعونا نقرأ قراءة أخيرة ونضع عليها تواقيعنا جميعاً ما لم يكن ثمة أي خطأ رئيس في اللغة".

صباح اليوم التالي، صباح 16 أيار/مايو، وقع بريمر أمر اجتثاث البعث. وفي وقت لاحق من اليوم نفسه، كما قال في كتابه، بعث برسالة إلكترونية إلى زوجه في الولايات المتحدة، كما كان يحاول أن يفعل يومياً، ليخبرها بالرد الذي سمعه من الأمريكيين في الميدان: "ثمة كان كم هائل من الشكوى والتذمر حيث كان كثيرون يتخوفون من احتمال كون الأمر بالغ الصعوبة. غير أنني ذكّرتهم بأن توجيهات الرئيس كانت واضحة: عملية اجتثاث البعث ستتم ولو على حساب الكفاءة الإدارية. عاش الجميع وقتاً غير جيد".

نحو الساعة الرابعة من ذلك اليوم طار أبي زيد، الخَلَف المحتمل للجنرال فرانكس قاصداً للسنتكوم، إلى بغداد للقاء غارنر. عَبَّر الرجلان عن القلق إزاء استمرار الاشتباكات شمال بغداد. بعض العراقيين لم يكونوا يسلمون، غير أنهم كانوا سيئي التجهيز مما كان يؤدي إلى تعرضهم لمذابح حقيقية. إحدى وسائل وضع حد للمقاومة العشية وحمامات الدم تمثلت، برأي غارنر وأبي زيد، بإقناع العراقيين بأن حكومة جديدة ستتشكل، وبأن حكم صدام قد ولى إلى غير رجعة.

تناولا موضوع خطتي اجتثاث البعث وتسريح الجيش.

قال غارنر لأبي زيد: "أقول لك يا جون: من شأن اعتماد هذه الخطة أن يكون بشعاً. سيستغرق ضبط البلد عشر سنوات، وطوال ثلاث سنوات ستظل مستمراً في إعادة الشباب إلى الوطن جثثاً في الأكياس".

لم يعترض أبي زيد. قال: "أسمعك. نعم أسمعك". ثم طلب من غارنر أن يظل في العراق.

"لا أستطيع أن أبقى" قال غارنر.

يوم الجمعة، في 16 "يار/مايو، عقد بريمر وجون سُوَرْز، السفير البريطاني في مصر، الذي أوفد إلى العراق بوصفه كبير ممثلي المملكة المتحدة في منظمة بريمر التي سُحيت رسمياً سلطة التحالف المؤقتة، اجتماع عشاء مع القيادة العراقية التي كان غارنر قد شكلها. كان بريمر قد قاوم الاجتماع مع الجماعة القيادية في وقتٍ سابق من الأسبوع، كما تذكر لاحقاً: لأنه، جزئياً، "أراد أن يثبت للجميع أنه هو، لا جي، المسؤول بعد الآن".

شرح بريمر أنه متفانٍ في محاربة الإرهاب. ممتلئاً ثقة بالنفس أوحى بأن العراقيين سطحيون تقريباً. ثم قال صراحةً: "الأمر الذي يجب أن تدركوه هو أنكم لستم الحكومة. نحن الحكومة. ونحن المسؤولون. نحن من يمسك بزمام الأمر".

أقله كان ثمة صراحة، لا لعبة قط وفأر. غير أن غارنر كان يدرك أن الاحتلال الامبريالي الذي جرى تحذيره بشأنه وبات متوجساً حوله في تمرينات الحجارة قبل ثلاثة أشهر كان قد أصبح نافذاً.

في اليوم التالي غادرت مجموعة غارنر الانتقالية متوجهة إلى الوطن. كان وجه القيادة العراقية متمثلاً الآن بغرفة فارغة(*).

سمع هادلي للمرة الأولى عن مرسومي اجتثاث البعث وتسريح الجيش حين قام بريمر بإعلانهما على العراق والعالم. لم يكونا قد مرا بعملية الإدارات البينية الرسمية وحسب معلومات هادلي لم يكن ثمة أي مباركة من جانب البيت الأبيض. كذلك لم تكن رايس قد استشيرت. لم يكن لموضوع قد عاد إلى واشنطن أو مجلس الأمن القومي التماساً لاتخاذ قرار. غير أن رايس لم تفاجأ بالأمر. فالجيش العراقي كان قد تعرض لنوعٍ من التبعثر والتبدد، آخر المطاف.

كان أحد محامي مجلس الأمن القومي قد جرى إطلاعه على مسودات خطط تطهير العراق من البعث وتسريح الجيش - ولكن ذلك لم يكن إلا التماساً لنوعٍ من المشورة القانونية. لم يسبق لصانعي القرار السياسي أن اطلعوا على المسودات أن توفرت لهم فرصة إبداء الرأي حول مدى صلاحية الأفكار أو حتى حول ما إذا كانت الخطط متناقضة جذرياً مع ما كان قد رُسم من قبل وعُرض على الرئيس.

بدلاً من كل ذلك، باتت المعزوفة الثابتة التي صار هادلي يسمعها بدءاً بنيسان/ أبريل 2003 منبعثة من البنتاغون تقول: "هذا شأن يخص دون رمسفلد وسوف نحقق التنسيق بين الإدارات والوزارات هناك في بغداد. فلنترك معالجة الأمر لجَري!"

أما الجنرال ميرز، المستشار العسكري الرئيس لكل من بوش، رمسفلد ومجلس الأمن القومي، فلم يكن قد أُخذ رأيه حول تسريح الجيش، بل جوبه بالأمر على أنه أمر واقع.

في إحدى المحطات قال رمسفلد لميرز ملمحاً إلى قرارات بريمر: "لن نبقى جالسين هنا ضاربين أخماساً بأسداس حول كل ما يفعله".

همس ميرز في أذن أحد الزملاء قائلاً: "لم يكن لي رأي في الموضوع غير أنني أستطيع أن أرى أن السفير بريمر ربما كان يظن أن تصرفه معقول".

(*) على امتداد الأشهر، كان بريمر سيؤلف مجلس حكمه الانتقالي وسيبقى مكوناً بأكثريته من الأشخاص الذين كان غارنر قد اختارهم لمجموعته أنفسهم. فرئيسا الوزارة المؤقتة الأولان، العلاوي والجعفري، كانا سيأتيان من رحم المحاولة الأولية التي بذلها لإعطاء وجه عراقي للحكم، كما كان الرئيس بوش قد أقر بعد يومين من اندلاع الحرب.

فيما بعد أقر رمسفلد بأن من شأنه أن يستغرب إذا ما أقدم وولفوفيتز وفايث على إعطاء بريمر أمري اجتثاث البعث وتسريح الجيش. واعترف بعدم تذكره لأي اجتماع لمجلس الأمن القومي حول الموضوع. وعن بريمر قال رمسفلد: "لم أكن أتحدث معه إلا نادراً. وكانت لديه مقاربة مختلفة عن مقاربة غارنر. بكل تأكيد".

بات بريمر غارقاً. لم يكن اجتثاث البعث وتسريح الجيش إلا جزءاً من أيامه الخمسة الأولى، حسب ملاحظاته. بعد ساعات من هبوطه على أرض بغداد، كان أحدهم قد استشاره عما إذا كان يتعين عليه أن يمكّن جامعة بغداد من عقد انتخاباتها لاختيار مسؤوليها، فأمره بأن يفعل. ألغى قانوناً صدّامياً كان يمنع أساتذة الجامعات من السفر. أسس محطة تلفزيونية وجريدة يومية. كانتا تحاولان تنظيم خدمات على الهواتف النقالة. قام بريمر بزيارة مستشفى الأطفال البغدادي وأمر بتزويد جميع مستشفيات المدينة بمولدات كهرباء احتياطية. اتخذ إجراءات تكفل تأمين المحروقات والبتزين في الحالات الطارئة. لم يكن أحد من موظفي العراق المدنيين قد استلم راتباً منذ ما قبل الحرب، رغم انقضاء ثلاثة أشهر على ذلك. قال أحد مستشاري بريمر: "سيستغرق وضع سلم صحيح للرواتب مدة ثلاثة أشهر".

رد عليه بريمر: "أمامكم ثلاثة أيام". قاموا على عجل بـ "فبركة" نظام أجور شديد البساطة فيه أربع مستويات. بلغت التكاليف الشهرية 200 مليون من الدولارات.

قائمة مهمات مذهلة، لها أول وليس لها آخر، والقرارات كان يجب اتخاذها في مواعيدها المحددة بدقة استثنائية. لم يكن ثمة أي وقت لتشكيل نظام معين، لأخذ رأي واشنطن بالقرارات أو للانتداب. يضاف إلى ذلك أن بريمر كان يرى أن أحداً ممن يتوفرون على عقول سليمة ولديهم أي تجارب مع بيروقراطية حكومة الولايات المتحدة لم يكن مستعداً لأخذ رأي واشنطن حول أي قرارات حاسمة.

وروبن رافيل، التي عاصرت بريمر في وزارة الخارجية وعرفته لسنوات، قالت إنهم كانو بحاجة إلى تحصيل 150 مليوناً من الدولارات لشراء محصول المزارعين العراقيين من القمح والشعير. "علينا أن نفعل شيئاً مباشرةً، لأن المحصول يجري جنيه" قالت رافيل. ذهبت مع بريمر إلى كبار موظفي الأمم المتحدة في بغداد، أولئك الذين كانوا يستطيعون تحويل الأموال من أرصدة النفط من أجل الغذاء لدى الأمم المتحدة – ذلك البرنامج الذي عُرف باسم او إف إف – لشراء المحصول الوطني من الحبوب.

قال موظف الأمم المتحدة لبريمر: "إن أموال البرنامج عائدة، يا سعادة السفير، إلى الحكومة العراقية، ولا أستطيع صرفها دون موافقة هذه الحكومة".

رد عليه بريمر: "أنا الحكومة العراقية الآن. ونيابة عن تلك الحكومة أطالب الأمم المتحدة برفع القيود عن هذه الأرصدة فوراً". وقد حصل على المبلغ آخر المطاف.

ثمة كانت مشكلات في كل مكان. ما أكثر ما كان بريمر يقول لنفسه: "يا إلهي! هذا بحاجة إلى إصلاح. هيا إلى العمل!"

ظلت المصابيح الكهربائية متراقصة، غامزة. قال بريمر: "اذهب وقم بإصلاح الكهرباء!" موجهاً كلامه إلى كلاي ماكماناوي، أحد نوابه الموثوقين. "ابحث عن السبب الذي يبقينا عاجزين عن استعادة الطاقة الكهربائية".

كان ماكماناوي البالغ الـ 70 من العمر أحد أوائل الذين كان بريمر قد جنسهم لمرافقته. كان قد جاء به من الولايات المتحدة لمجرد تنفيذ مثل هذا النوع من المهمات. كان الرجل قد أمضى 30 سنة في السلك الخارجي، إضافةً إلى بعض الوقت في وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية. لم يبق مكان في العالم إلا وقد كان فيه، بما في ذلك العمل في فيتنام لمدة خمس سنوات. كان يعرف كيف يعمل في الأمكنة المعطلة والمشلولة.

كانت شبكة الصرف الصحي في بغداد بالغة السوء، ملف آخر أحاله بريمر على ماكماناوي. كانت المياه المالحة تتراجع وتطفو على السطح في كل مكان. كانوا يرونها ويشمونها حيثما ذهبوا. نازلاً، حرفياً، إلى الشبكة تحت الأرض رأى ماكماناوي أن الخراب كان شاملاً. ثمة كانت شبكتا صرف أو ثلاث منفصلة تحت شوارع بغداد. لم تكن الشبكات متصلة، وهي جميعاً معطلة. لم يكن لديهم سوى أمريكي واحد، مهندس صرف صحي من بنسلفانيا، يحاول إصلاح الأعطال.

"يا للهول والخسارة". صرح ماكماناوي باشمئزاز.

استيقظ غارنر صباح السبت الواقع في 17 أيار/مايو حالماً بالجنرال والمفكر الاستراتيجي العسكري الصيني القديم صن تزو. في كتابه فن الحرب حذّر تزو من الذهاب إلى النوم ليلاً وقد أصبح عدد أعدائك أكبر مما كان في الصباح عند بدء العمل. ووفقاً لتقديرات غارنر كان أعداء الولايات المتحدة قد زادوا، أقله، 350.000 عما كانوا من قبل - الـ 50.000 بعثي، الـ 350.000 جندي مسرح رسمياً من الجيش وعاطل عن العمل، مع حفنة القيادة العراقية التي باتت بائدة.

في ساعة لاحقة من اليوم نفسه استضاف اجتماعاً كبيراً حضره أبي زيد، ماك كيرنان وقائد المنطقة العسكري – مع فرق مدنية عاكفة على معالجة قضايا برنامجه العشر الرئيسة. كان الجو حاراً وكانت الغرفة مزدحمة، حيث احتشد عدد كبير من الناس حول طاولة كبيرة. أحد المداخل كان يفضي مباشرةً إلى باحة مكشوفة؛ وبعد الباحة كانت مكاتب بريمر.

ما إن بدأ أحد جنرالات الأركان بتقديم تقريره حتى دخل ماكماناوي من الباب المفضي إلى الباحة.

موجهاً كلامه إلى أبي زيد قال ماكماناوي: "يريد بريمر أن يراك".

"فور انتهائنا من هذا الاجتماع" قال أبي زيد.

"بل الآن" أوحى ماكماناوي.

نظر أبي زيد إلى غارنر كما لو كان يسأله: ماذا أفعل؟

قال غارنر: "اذهب إليه. إنه يدعوك".

بعد بضع دقائق دخل ماكماناوي مرة أخرى وقال إن بريمر يريد رؤية ماك كيرنان.

متوجهاً إلى غارنر سأل ماك كيرنان: "هل تريدني أن أذهب؟"

"نعم، لم لا؟"

طرح جنرال آخر سؤال: "وهل تظن أنه ينبغي أن نواصل هذا الاجتماع أم أنه انتهى؟"

رد غارنر: "دعونا نستأنف وننهي الجدول فقد أثقله الجميع بالكثير من العمل". أخيراً أدرك غارنر أن القضايا المطروحة كانت مقتصرة على الوزارات، الرواتب المتراكمة، الشرطة، الماء، الكهرباء، الصرف الصحي، الوقود، الغذاء، الإدارة، الصحة والأمن. جوهر مستقبل العراق فقط. وهل هناك من يقيم أي وزن لذلك؟

تذكر روبن آدمز: "شعرت بكثير من الاشمئزاز. كنا نتعرض للتهميش".

لدى انتهاء الاجتماع مشى غارنر إلى مكتب بريمر واقتحمه. أغلق الباب وراءه بقدرٍ من اللطف وضبط النفس اللذين لم يكونا نابعين من أعماقه.

"إياك أن تتصرف معي كما فعلت مرة أخرى!"

سأله بريمر: "ما الذي تعنيه؟"

"إذا حاولت أن تسحب أشخاصاً من اجتماع أعقده..." بدأ غارنر. ثم أضاف بعد تغيير صيغة الجملة: "ينبغي لاحترامك لي أن يكون أكثر من ذلك. سأكون صريحاً معك. سأسهل عليك الأمر يا جَري. أنا عائد إلى الوطن".

قفز بريمر عن كرسيه صارخاً: "لا تستطيع أن تعود إلى الوطن".

"لا أستطيع أن أتعاون معك، وأنا مغادر. ما فعلته قبل قليل - لم يسبق لأحد أن عاملني بهذا الأسلوب، وأنا لن أسمح لك بأن تكرر ذلك".

"لم أكن أعرف ما الذي كان جارياً".

"هذا هراء وكلام فارغ. كنت تعرف بالتحديد ما كان يجري".

استمر السجال دقيقة أو اثنتين.

واضعاً حداً للاثنين قال بريمر: "انظر يا جي، قد لا نتفق نحن الاثنين على أي شيء، غير أننا نرمي إلى تحقيق الهدف نفسه".

قاطعه غارنر: "لا أظن أن ذلك صحيح".

"بلى، هدفنا واحد وهو إنجاح دولتنا في هذه المهمة".

"أنت على حق. مصيب أنت حول ذلك".

"حسناً، إذا كنت راسخ الإيمان بذلك مثلي فإن عليك أن تبقى لبعض الوقت. يتعين عليك أن تساعدني على بلوغ الهدف".

"سأكون صريحاً معك يا جَري. سأعمل معك بموجب عقد يومي، من يوم إلى يوم. إذا تكررت معاملتك السيئة معي، فسأرحل. ثمة عدد قليل من الأمور التي يطيب لي أن أنجزها، ولن تستغرق وقتاً طويلاً باعتقادي. ولحظة انتهائي منها سآتي لأصافحك مودعاً".

"موافق، دعنا نتعاون على هذا الأساس".

"عليك أن توفر لي جهاز العاملين" قال غارنر.

فكر بريمر لحظة، ثم قال أخيراً: "لا أظن أنني أستطيع أن أفعل ذلك".

"لماذا؟"

أفاد بريمر بأنهما، هو وغارنر، قد يعطيان توجيهات متناقضة، إلا أنه وعد بأن يفكر في الأمر.

قال غارنر: "لا أعتقد أنني أتمكن من إنجاز أي شيء ما لم أكن متوفراً على جهاز عاملين مناسب".

"دعني أفكر بذلك!"

"سأخبرك بما سأقوم به. الشيء الاستثنائي الذي لابد من حدوثه فوراً هو أن علينا أن نسدد رواتب الموظفين المدنيين والشرطة. إنها عملية بالغة التعقيد والصعوبة. سأبقى هنا حتى أطمئن إلى أنها قد تمت. وما إن أتأكد من ذلك حتى أبادر إلى اتخاذ قراري إما بالبقاء لفترة قصيرة إضافية أو المغادرة".

"موافق. وأنا سأبلغك لاحقاً بما قررته بشأن جهاز العاملين".

فيما بعد قال بريمر إنه كان يزداد غضباً من الناس رغم إقراره بالحاجة إلى نوع من الانتقال الهادئ من جماعة غارنر إلى جماعته هو – من أولئك الذين كانوا يسربون تفاصيل عن خططه واجتماعاته إلى وسائل الإعلام. وأحد هذه التسريبات كان قد أطلق قصة إعلامية عن اقتراح بريمري يقضي بتمكين الجيش من إطلاق النار على اللصوص. كتب بريمر يقول: "كنت بحاجة إلى خبرة جي في المجال اللوجستي، غير أنني لم أكن لآسف على رحيل المسرِّبين".

بعد ساعات قليلة من المجابهة، سارع غارنر ومساعده التنفيذي، العقيد أولسون، إلى مغادرة بغداد اللعينة متوجهين جنوباً إلى مدينة الحلة. كانت أولسون ترى أن من شأن قيام بريمر بمسايرة غارنر بعض الشيء أو تكليفه ببعض المهمات، ولاسيما في أمكنة بعيدة عن بغداد، أن يؤدي إلى بقاء الأخير وتقديمه للمساعدة. غير أنها شعرت بأن بريمر كان يقترف خطأ كلاسيكياً في فن القيادة: خطأ عدم الاهتداء إلى الأسلوب الناجح لتوظيف الموهبة الموجودة في متناول يده.

كانت روبن رافيل تريد غارنر أن يبقى. كانت تعتقد بأنه أقدر من بريمر على إدراك ما ينبغي عمله. فغارنر وفريقه الأساسي، النواة، كانوا قد بذلوا جهوداً كبيرة في سبيل تأمين موطئ قدم في العراق، غير أنهم لم يكونوا، على الصعيد السياسي، يتقنون فن اقتناص الفرص. في أحد انتقاداتها القليلة له اتفقت مع البيت الأبيض بشأن إصرار غارنر على عدم ارتداء السترة مصحوبة بربطة العنق. لم يدرك، على ما يبدو، أن العراقيين ميالون إلى الرسميات.

كان بريمر أنيقاً. درج يومياً على ارتداء بدلة مع قميص أبيض وربطة عنق. كان حذاؤه المصنوع من الجلد المدبوغ من طراز تمبرلاند الذي اعتاد على انتعاله مع طقمه

الداكن قد أصبح علامة مميزة. كان يحيط نفسه بحاشية مؤلفة من نحو عشرين من النشطاء المفعمين حيوية. بعضهم كان يسخر من غارنر لافتقاره إلى برنامج عمل يومي رسمي. كان فريق غارنر قد أطلق على نفسه لقب "رعاة بقر الفضاء" المستلهم من مخيمات إيستوود حيث يتجمع عدد من رواد الفضاء المتقاعدين للقيام بمهمة أخيرة. أما جهاز العاملين الشباب لدى بريمر فكان يشار إليه بعبارة "لواء أولاد المحافظين الجدد" أو بعبارة أكثر انطواءً على الاستهزاء من قبل بعض الضباط الذين كانوا يرون الجهاز "أطفالاً يحاولون أن يضطلعوا بأدوار الراشدين".

أدرك بريمر أن التحديات كانت هائلة. تذكر لاحقاً أنه قال: "أنا مستعد لمواجهة مشكلات مالك آرثر. لم تكن الشروط بالنسبة إليه على هذه الدرجة من التعقيد". ومع ذلك، فقد ظل يبدو راسخ القناعة بأنه كان سينجح. تساءلت رافيل بينها وبين نفسها "هل الأمر عائد إلى طبيعته أم نابع من نوع من الإيمان الديني الذي كان يتقاسمه مع الرئيس؟"

أواخر أيار/مايو، في اليوم السابق ليوم مغادرة لاري ديريتا عائداً إلى واشنطن، تحدث أحد التقارير الإخبارية عن انفجار وقع على الطريق المؤدية إلى مطار بغداد – الطريق المعروفة باسم بياب BIAF – عند مرور إحدى عربات الهمفي. لم يُقتل أحد، إلا أن ديريتا فكر بينه وبين نفسه: "واو، إنها لمثيرة حقاً. ليتني أعرف السبب!" بدا الأمر خارجاً عن المألوف، لأن طريق المطار كانت تبدو كما لو كانت شارعاً أمريكياً عريضاً حيث درج الجميع على السفر دون حراسة أمنية، مدرعة أو مرافقة.

كان ذلك يومه الأخير في بغداد، وفي تلك الليلة، نحو الحادية عشرة قبيل منتصف الليل، انحشر مع عدد من أفراد جهاز العاملين لدى بريمر في إحدى السيارات وتوجهوا إلى الطرف الآخر من بغداد لتناول العشاء في مطعم مزدحم. بدا جميع الرواد عراقيين. تناولت جماعة ديريتا العشاء. جنديان أمريكيان كانا يسيران في الشارع، خرج الناس من المطعم لتحية الجنديين وشُكرهما. كانت سهرة جديرة بالتذكر، ملأى بالفرح، أشبه بأحد مشاهد أماسي باريس المحررة بعد الحرب العالمية الثانية.

بعد عودته إلى البنتاغون كان ديريتا قد أطلع رمسفلد على الطريقة التي عبر بها العراقيون عن مشاعرهم وقدم وصفاً لسهرة المطعم في ليلته البغدادية الأخيرة.

قال رمسفلد: "إن هذا يسير على السكة الصحيحة".

20

أوائل أيار/مايو 2003، هزت الهجمات الإرهابية العاصمة السعودية الرياض مستهدفة مؤسسة أعمال ذات علاقة بالولايات المتحدة وثلاثة مجمعات سكنية ذات أكثرية من الغربيين في المقام الأول. ثمانية أمريكيين كانوا بين القتلى الـ 34. الجرحى كانوا بالمئات. كانت إحدى أسوأ الهجمات الإرهابية منذ 9/11. قام بوش بإيفاد تنت لمقابلة ولي العهد.

قال تنت لولي العهد السعودي الأمير عبد الله إن القاعدة موجودة هنا في المملكة. سيقتلونكم. إنهم يستخدمون بلدكم قاعدة انطلاق لشن الهجمات على الولايات المتحدة. إذا ما حصل ذلك، فإن العلاقات الأمريكية - السعودية كلها ستنتهي، حسب تحذير موفد بوش.

وافق عبد الله على تعاون سعودي - أمريكي؛ مكنت بموجبه وكالة الاستخبارات المركزية السعوديين من الإطلاع على معلومات استخباراتية أمريكية أكثر حساسية، بما فيها تسجيلات وكالة الأمن القومي لاتصالات ملتقطة داخل السعودية وفي المنطقة.

الاستخبارات السعودية رأت أن التعاون لم يكن كافياً. بدا السعوديون غير واثقين بالترجمات الأمريكية. فاللهجات العربية المحكية في العربية السعودية، المغرب، تونس، اليمن وغيرها شديدة التباين. أخيراً بدأت وكالة الأمن القومي تزود السعوديين بمقتطفات من التسجيلات المرئية والمسموعة لبعض الاتصالات الملتقطة توخياً لتأمين ترجمات أدق، مع توفير إمكانية تعقب بعض الأصوات أو التعرف عليها من قبل أجهزة الأمن السعودية، المخبرين أو المحتجزين.

كان غارنر يمضي أكثر وقته خارج بغداد بعيداً عن بريمر بعد شجارهما. التقى مقدماً بريطانياً في جنوب العراق أفاد بتوفره على نحو مليون دولار أرصدة سائلة تحت تصرفه لينفقها في قطاعه. أما غارنر فلم يكن قادراً على التصرف ولو بقرش واحد.

ذهب إلى بابل، تلك المدينة القديمة التي اشتهرت يوماً بالفنى والترف، الواقعة على بعد نحو ثمانية أميال من الحلة في القطاع السفلي من نهر الفرات.

حسب ما جاء في مذكرات كيم ونسون، قال غارنر: "من المؤكد أننا لن نعالج هذا الأمر أبداً معالجةً صحيحة".

كتب بريمر مذكرة وجهها إلى الرئيس بوش عبر رمسفلد بعد أسبوع واحد من وصوله إلى البلد عاكساً خطه المتشدد الجديد، قال بريمر: "يجب علينا أن نوضح للجميع ونفهمهم بأننا جادون: أن صدّاماً والبعثيين قد انتهوا". وزعم أن "حل أداة هيمنته السياسية المختارة، حزب البعث، قد قوبل بقدرٍ كبير من الترحيب". وقد ترافق هذا "مع تدبير قوى تمثل بحل أجهزة صدام العسكرية والاستخباراتية تأكيداً لمدى جديتنا".

من ناحية أخرى، كتب بريمر "علينا أن نبين للمواطن العراقي العادي المتوسط أن حياته ستصبح أفضل. ونحن نواجه سلسلة من القضايا الملحة بما فيها حل مسألة الخدمات الأساسية. حققنا تقدماً عظيماً في قيادة غارنر. ثمة كان تعبير شبه شامل عن الشكر والامتنان للولايات المتحدة ولك أنت على نحوٍ خاص على تحرير العراق من استبداد صدام. ففي مدينة الموصل الشمالية اندفع يوم أمس رجل مسن نحوي ظاناً أنني الرئيس بوش (ربما ليس ممن يتابعون البرامج التلفزيونية) وطبع قبلتين ميلتين شعثاوين على وجنتي".

متوجهاً إلى جري بيتس، رئيس جهاز العاملين لدى غارنر، سأل والت سلوكومبي: "ما الذي يُلزمنا بتسديد رواتب جيش هزمناه هزيمة كاملة؟"

أجابه بيتس: "لأننا لا نريد لأفراده أن ينتقلوا في غمضة عين إلى الطرف الآخر. لابد لنا من أن نبقيهم تحت سيطرتنا".

سبق لسلوكومبي وبيتس أن عملا معاً في البنتاغون خلال سنوات كلنتون كان الثاني معجباً بالأول ويراه ذكياً. غير أنهما كانا مختلفين بحماسة حول هذه المسألة، وكان بريمر مقتنعاً بوجهة نظر سلوكومبي اقتناعاً واضحاً. كان بريمر هذا يقول: "لقد ذاب الجيش وتلاشى؛ لم يعد موجوداً؛ لن ندفع له شيئاً".

في 19 أيار/مايو 2003 أرسل بريمر إلى رمسفلد مذكرة من صفحتين تبلغه عن اعتزامه إصدار أمر يقضي بحل الجيش العراقي. لم يكن في الحقيقة يوصي أو يطلب إذناً. "في الأيام المقبلة أقترح إصدار الأمر المرفق".

في الأيام التي أعقبت أمر تسريح الجيش، بدأت العربات المتحركة على الطريق الواصلة بين بغداد والمطار تتعرض للهجوم على نحوٍ أكثر انتظاماً. حشود بدأت تتجمع للاحتجاج على الأمر، وإن اختلفت التقارير كثيراً بشأن أعداد المشاركين في كل من مظاهرات الاحتجاج. يوم 19 أيار/مايو تظاهر نحو 500 شخص أمام مداخل مبنى سلطة التحالف المؤقتة. وبعد أسبوع، في 26 أيار/مايو، تجمع حشد أكبر للتظاهر. بعض التقارير الإعلامية العربية التي تُرجمت لاحقاً وقُدمت إلى فريق بريمر كانت تتحدث عن أعداد تصل إلى 5000 متظاهر احتجاجي.

قال أحد قادة المظاهرة، وهو لواء عراقي يدعى صاحب الموسوي: "نطالب بتشكيل حكومة بأسرع وقت ممكن، باستعادة الأمن، بإعادة تأهيل المؤسسات العامة، وبدفع رواتب جميع أفراد الجيش". جرى بث خطابه عبر شبكة الجزيرة الناطقة بالعربية، وقد تمت ترجمته لاحقاً لسلطة التحالف المؤقتة. "إذا لم تتم تلبية مطالبنا، فإن يوم الإثنين القادم سيشهد بدء عملية افتراق الجيش والشعب العراقيين من ناحية عن المحتلين من الناحية المقابلة".

بات بول هيوز الآن مضطراً للتعامل مع الضباط العراقيين الذين كانوا يطالبون بتسديد مبلغ 20 دولاراً لكل عنصر كدفعة طارئة، ولكن أمر بريمر كان قد أنهى الوجود الرسمي لهؤلاء الضباط. تردد هيوز لبعض الوقت، غير أنه ما لبث، أخيراً، أن قرر الذهاب إلى الضباط.

سأله مرجان ضياء المندوب الذي يتحدث باللغة الإنجليزية: "ما الذي حدث يا عقيد بول؟"

رد هيوز: "لا أعلم. لا أستطيع أن أفسر ما حدث. أنا مندهش ومصعوق مثلك".

"اسمع أيها العقيد بول، لدينا رجال وراءهم عائلات. ليسوا متوفرين على أي طعام. إنهم يهربون. يتعين علينا أن نفعل شيئاً".

أخيراً أقنع هيوز رئيس أركان سلوكومبي بضرورة الاجتماع مع ممثل الجيش العراقي. ثمة كان لا يزال احتمال للحصول على 20 دولاراً لكل عنصر، غير أن الأمور كانت تسير ببطء شديد.

كان غارنر في مطار بغداد الدولي لاستقبال وفد ضيف من الكونغرس في 26 أيار/مايو. عاد على طريق المطار بسيارته الشَّفَر الريفية غير المدرعة إلى قصره المزعوم

حيث كان يعمل فريقه لحضور حتفال وداع صغير أقيم على شرفه. تمازح بعض العاملين حول احتمال مجيء بريمر إلى الاحتفال، غير أنه حضر وكان مشرقاً وودوداً.

في اليوم نفسه، ثلاثة من الكشافة الفرسان الأمريكيين المكلفين بمرافقة قوافل شاحنات التموين أو استكشاف الطريق أمامها، كانوا أيضاً على طريق المطار مستقلين أولى سيارتي الهمفي المدرعة العائدة للطريق. دهست السيارة ما بدت حقيبة ظهر في منتصف الطريق.

انفجرت الحقيبة، ممزِّقة الهمفي وقاذفة بأحد الجنود إلى خارج العربة. بدأت الذخائر تتفجر متسببة بالمزيد من الانفجارات.

سارع الجنود في الهمفي الثانية إلى الانقضاض على المكابح والبنادق الرشاشة وراحوا يبحثون عن العدو بهلع. خرج أحد الجنود وهرع بسرعة إلى الجندي المقذوف، جيريميا دي سميث، جندي يبلغ 25 سنة من العمر ميسّوري، أحد أوائل الجنود الأمريكيين الذين تأكد سقوطهم قتلى برصاص العدو في العراق خلال أسابيع.

كان بول هيوز في القصر لحضور حفل وداع غارنر. قدر أن جنوداً عراقيين كانوا وراء الهجوم، وكان متأكداً، بالمثل، أن الولايات المتحدة كانت قد أضاعت أفضل فرصها لإبقاء الجيش العراقي تحت السيطرة عبر التعاون مع كبار الضباط العراقيين. "كنت ممسكاً بتلابيبهم. كانوا مستعدين للوقوف على رؤوسهم في نهر دجلة بإشارة مني طوال بقائنا منصفين في تعاملنا المتبدل. يا لها من مأساة مجانية!"

في اليوم التالي أطلق أحد وكلاء الاستخبارات الأمريكية تقويماً واقعياً صارخاً، قائلاً: "لدى جميع هؤلاء الزبائن كميات كبيرة من الذخائر في مرائبهم. إنهم مهمّون تم لفظهم. إنها البداية".

في 27 أيار/مايو، سطّر غارنر مذكرة رسمية موجهة إلى الرئيس. ظهرت نسخة عنها وعلى صفحتها الأولى عبارة "**اطّلع عليها وزير الدفاع**"

قال غارنر في مذكرته: "بما أن خدمتي موشكة على الانتهاء، أريد أن أشكرك على تمكيني من خدمة البلد وخدمتك في هذه المهمة الخطيرة. أعتقد أننا أرسينا قاعدة من شأنها أن تجلب الاستقرار للعراق، على الرغم من أن هناك، بالتأكيد، سلسلة من الطلعات والنزلات على الفريق. لقد شكلنا فريقاً رائعاً من المحترفين، وجَري بريمر

اختيار موفق قادر على نقل الفريق إلى المستوى التالي وعلى المساهمة في خلق الظروف المطلوبة لتحقيق إصلاح سياسي واقتصادي حقيقي في العراق".

"درج بعض المهمات الرئيسة المنتظرة - من الغذاء إلى الأمن - مسلّطاً أكبر قدرٍ ممكن من الضوء على الإنجازات. لم يأتِ غارنر على ذكر أو حتى التلميح إلى أنه كان قد استنتج أن بريمر قد اقترف ثلاثة أخطاء كبيرة - الاجتثاث الواسع للبعث، تسريح الجيش، رفض المجلس العراقي الذي كان غارنر قد شكله. بدلاً من ذلك، فضّل الجنرال السابق أن يختم كلامه بمجرد توجيه الشكر ثانيةً إلى الرئيس على فرصة الخدمة قائلاً "كانت مهمة ملأى بالتحدي، بالصعوبات، وبالمكافآت. أشكرك أيضاً على قيادتك الملهمة زمن الحرب".

رأى غارنر أن إحدى المفارقات الساخرة تمثلت بكون حل المتنفذين في سلطة التحالف المؤقتة لدى بريمر آتين من وزارة الخارجية على الرغم من أن رمسفلد كان شديد الحرص على تمكين وزارة الدفاع من التحكم بجهود ما بعد الحرب. فبريمر الذي سبق له أن كان سفيراً وإن لم يسبق له أن تولى إدارة أي منظمة كبيرة، كان قد انتزع السيطرة على المشروع من براثن رمسفلد.

غير أن بريمر لم يكن، برأي غارنر، يعرف كيف ينتدب. كان لابد لكل قرار من أن يعود إليه. مما كان يعني أن شيئاً لم يكن يتحرك بسرعة.

لفّ مستشار رمسفلد وخبير الذاتية عنده ستيف هيريتس مذكرة سرية لاذعة بطول أربع صفحات موجّهة إلى معلمه عن أداء دوغ فايث معاوناً للوزير لشؤون التخطيط.

بعد نحو عامين اثنين، لم تكن قيادة فايث قد تحسنت؛ فأسلوبه وموقفه من عمله لا يزالان يتمخضان عن فريق ضعيف الأداء على نحوٍ لافت. وسلبياته تواصل التراكم. إن فترة ستة أشهر من التخطيط للعراق تعد الآن على نطاق واسع إخفاقاً خطيراً على صعيد المضمون، اختيار الملاكات، التعاون داخل وزارة الدفاع من جهة، ومن حيث العلاقات بين الإدارات والوزارات من جهة ثانية".

في إطار العلاقات البينية في مجلس الأمن القومي، تابع هيريتس يقول "يبقى لقب التخطيط "المجنون فايث ومفرخته الخبيثة"". تحدث عن أن فكتوريا ايه "توري" كلارك، الناطقة باسم البنتاغون قالت إن فايث مفتقر إلى "الاحترام والثقة".

اقترح هيربتس على رمسفلد أن بوسع وولفوفيتز، بيس ومستشارين آخرين أن يؤكدوا صحة هذه الآراء(*).

في مجلس الأمن القومي كان هادلي يعرف أن فايث هدف للكثير من الانتقادات، غير أنه كان، برأي هادلي، متوفراً على بعض الإيجابيات. كان أحد القلة التي كان رمسفلد يثق بها، أحد القليلين القادرين على انتزاع قرارٍ ما من رمسفلد ووضعه موضع التنفيذ. كان يولّد أعداداً هائلة من الأفكار الجيدة ويوفر للعملية البينية قيادة فكرية، برأي هادلي، وكان قادراً على إعداد التقارير الموجزة والمذكرات بصيغة مؤهلة لأن يوقعها رمسفلد بدلاً من إعادتها 10 إلى 15 مرة. أخيراً كان وفياً لرمسفلد.

برأي هادلي، لم يكن فايث يواجه أي مشكلة علنية، إلا لأنه كان ينفذ خطة رمسفلد. تشكل لدى هادلي انطباع قوي بأن فايث تُرك دون حماية، وجرى تعويضه للأنواء. لم تكن المشكلة متمثلة بفايث. كان رمسفلد هو المشكلة.

عملياً كان فايث يقلع شعره، كما كان فرانك ملر من جهاز عاملي مجلس الأمن القومي يستطيع أن يرى. لم يكن بريمر مستعداً لمخاطبته. كان يكلف معاونيه بالرد على مذكرات فايث. رسالته كانت شديدة الوضوح: "أنا أعمل في خدمة رئيس الولايات المتحدة،" متجاوزاً فايث ورمسفلد بالتالي.

رأى ملر قرار تسريح الجيش العراقي شديد الغرابة. منذ أشهر كانوا دائبين على إقناع بوش بخطة تقضي باستخدام 300.000 جندي عراقي لإعادة البناء. كان ملر يعد والت سلوكومبي، يد بريمر اليمنى في الشؤون العسكرية، أحد أصدقائه المقربين، إلا أنه ظل يعتقد تبرير القرار من قبل سلوكومبي وآخرين زاعمين أن الجيش كان قد حل نفسه تبريراً سخيفاً. نحن مسؤولون عن العملية، برأي ملر - وكالة الاستخبارات المركزية أمطرت المواقع العراقية بوابل من المنشورات التي حملت عبارتي: "اذهبوا إلى بيوتكم. القوا أسلحتكم وعودوا إلى منازلكم!"

(*) في مقابلة تمت في 2006، قال بيس إنه غير متفق إطلاقاً مع تقويم هيربتس، وإنه يرى أن فايث متوفر على "ذكاء خارق وقد كان ناجحاً في عمله. وفيما بعد وافاني فايث برسالة قال فيها إن رمسفلد وولفوفيتز دحضا تقويم هيربتس الذي وصمه فايث بـ "نتفة تشهيرية يجب ألا ترد في كتابي. "ليست مذكرته سوى أوهام فضائحية لشخص هامشي" كما قال فايث. "إنها تُسيء إلي دون أن تلقي أي ضوء حقيقي على أي شيء".

مع بروز بريمر على خشبة المسرح، كان فريق ملر الجامع لممثلي الوزارات المكلف بوضع خطط عراق ما بعد الحرب، فريق قيادة التنفيذ، قد حُل. لم يكن الشعور في البيت الأبيض مختلفاً عن نظيره السائد في البنتاغون - لم يكن بريمر بحاجة إلى مراقبتهما. إلا أن سيلاً من التقارير الصادرة عن البريطانيين وعبر وسائل الإعلام، كما من صلات فرانك ملر العسكرية، وإن لم تكن من بريمر نفسه، تدفق على مجلس الأمن القومي. أعمال السلب والنهب ظلت مستمرة. لم يكن موظفو العراق المدنيون يحصلون على رواتبهم. نحو 40.000 معلم طُردوا لأنهم بعثيون.

كان بريمر يطلق التصريحات ويعقد المؤتمرات الصحفية موحياً بأنه باقٍ في بغداد فترة طويلة من الزمن حسب توقعاته.

قال بريمر لأحد مراسلي **الواشنطن بوست** في رحلة جوية لهما على متن طائرة نقل من طراز سي - 130 من بغداد إلى مدينة أم قصر الجنوبية في 28 أيار/مايو: "الاحتلال كلمة بشعة، وهي غير مريحة بالنسبة إلى الأمريكيين، ولكنه واقع. ظل الرئيس بوش يقول باستمرار إننا سنبقى هنا إلى أن ننجز المهمة، لا أكثر ولو بيوم واحد. في الوقت نفسه يجب علينا أن نتأكد من عدم الرحيل قبل ذلك ولو بيوم واحد".

في 29 أيار/مايو أعلن بوش في مقابلة له مع أحد مراسلي التلفزيون البولوني: "عثرنا على أسلحة الدمار الشامل. عثرنا على مخابر بيولوجية. تتذكرون كيف وقف كولن باول أمام العالم وقال إن لدى العراق مخابر، مخابر متنقلة لإنتاج أسلحة بيولوجية. إنها غير شرعية. إنها مخالفة لقرارات الأمم المتحدة، وقد نجحنا إلى الآن في الكشف عن موقعين. وسوف نهتدي إلى المزيد من الأسلحة مع مرور الزمن. أما أولئك الذين يزعمون أننا لم نعثر على أي أجهزة تصنيع محظورة وأسلحة ممنوعة فهم مخطئون. إننا عثرنا عليها".

كان بوش في دوامة حقيقية، رحلة لمدة سبعة أيام عبر أوروبا والشرق الأوسط، مطلقاً تعليقات مشابهة حول العثور على أسلحة دمار شامل في فرنسا. تمثلت المشكلة الوحيدة بأن الأسلحة لم تكن قد تم العثور عليها. وفريق عمل البحث رقم 75 العسكري كان يواجه مشكلات بالغة الصعوبة في البحث الكبير عن أسلحة التدمير الشامل العائدة لصدام، لم تكن سلسلة التأكيدات الزائفة ذات الانتشار الواسع أقلها. ما من مرة بدا أن شيئاً تم العثور عليه مما يمكن تصويره على أنه سلاح تفوح منه رائحة

البارود – مخزون مزعوم، مرجل أو حتى قارورة صغيرة لأسلحة بيولوجية – حتى كان يجري تكذيب الرواية من أساسها وبسرعة.

دون معرفة الرئيس، قبل مقابلته التلفزيونية بأربعة أيام، كان جهاز استخبارات الدفاع قد أوفد فريق خبراء مدنيين مؤلف من تسعة أعضاء إلى العراق لمعاينة المَخْزنين المتنقلين اللذين كان قد تم العثور عليهما. كان الفريق قد أرسل تقريراً ميدانياً مؤلف من ثلاث صفحات قبل يوم واحد من تصريح بوش تضمن استنتاجاً يقول إن المخبرين لم يكونا لصنع أسلحة بيولوجية. أما تقرير الفريق السري المؤلف من 122 صفحة الذي أُنجز في الشهر التالي، فقد بين أن المخبرين لم تكن لهما أي علاقة بأي أسلحة ـ مدمر شامل. جميع المؤشرات دلت على أن الاحتمال الأقوى هو أن المخبرين كانا لإنتاج غاز الهيدروجين المستخدم في مناطيد الجو.

بعد يوم واحد من ملاحظات بوش، في مؤتمر صحفي بالبنتاغون، أعلن ستيفن رمسفلد لشؤون الاستخبارات، ستيف كامبون، والميجر جنرال في الجيش كايث دايتون، رئيس قسم الاستخبارات البشرية في جهاز استخبارات الدفاع، رسمياً عن إيجاد مجموعة مسح العراق الجديدة. قال دايتون إن مجموعته الجديدة المؤلفة من 1400 عنصر كانت ستتولى البحث من الآن، غير أنها ستقوم بمهمات أخرى مثل جمع المعلومات الاستخباراتية عن الإرهاب وجرائم الحرب. كانت وحدته ستتمركز في قَطَر، على بعد نحو 400 ميل إلى الجنوب من العراق، على الضفة الأخرى للخليج الفارسي حيث تحتفظ القيادة المركزية للجيش بأنظمة اتصالات متطورة لإرسال المعلومات إلى الولايات المتحدة.

كان ماركس العنكبوت جاهزاً للعودة إلى الولايات المتحدة. كان العقيد روتوف مهدوداً من التعب. كان جاهزاً للتقاعد من الجيش، وقد رتب لوظيفة مكتبية في واشنطن لبضعة أشهر إلى أن يقرر أسلوب التعامل مع العالم المدني. قبيل مغادرته الشرق الأوسط قام بتلخيص أفكاره عن الحرب، الخوف، الانتصار العسكري المتعل، الإخفاق في العثور على أي أسلحة دمار شامل، والعاقبة الفوضوية – في واحد من ثلاثياته الشعرية ذات الطراز الياباني دَوَّنَها في دفتر مذكراته:

عرفنا كيف نقاتل

بناء الأمم؛ لا علاقة لنا به

قد نخسر السلم

في 2 حزيران/يونيو احتشد نحو 1000 جندي سابق في بغداد خارج بوابات مقر سلطة التحالف المؤقتة للاحتجاج على حل الجيش. مذكرة داخلية لسلطة التحالف تحدثت عن الحدث مركزة على التغطية الواسعة لوسائل الإعلام الناطقة بالعربية مثل شبكي الجزيرة والعربية التلفزيونيتين، ووكالة أنباء رويتر الناطقة بالإنجليزية.

قالت المذكرة: "صدرت تصريحات علنية عن بعض العاملين السابقين في وزارة الدفاع تؤكد أنهم سيلوذون بشن هجمات انتحارية إذا لم تُعالج مظالمهم. ثمة محتجون آخرون واصلوا الكلام عن اعتزامهم تنظيم وحدات مسلحة لمقاتلة احتلال سلطة التحالف الانتقالية".

أحد قادة التظاهرة الاحتجاجية قال للمراسلين بعد لقائه مسؤولاً من سلطة التحالف: "الشعب العراقي كله قنبلة موقوتة ستنفجر في وجه أمريكا إذا لم تضع حداً لاحتلالها".

وأعلن متظاهر احتجاجي آخر، وهو ضابط سابق قائلاً: "سنتحول جميعاً إلى قنابل انتحارية. سأجعل من بناتي الست قنابل لقتل الأمريكيين".

ورداً على ذلك ظل بريمر يقول: "سنتعرض للابتزاز لجرنا إلى إنتاج برامج معينة تحت تأثير التهديد بالإرهاب". وقد لاحظ أن المظاهرات كانت المرة الأولى التي يجرؤ فيها أحد على الاحتجاج خارج قصر صدام الرئاسي منذ عقود. أليس هذا تقدماً؟

طار بوش إلى قَطَر كمحطة شرق أوسطية لرحلته وجاء بريمر من بغداد للقائه. تحدث الرجلان في المقعد الخلفي من سيارة بوش الليموزين في طريقهما إلى مقر القيدة المركزية القريب من المطار في فندق كارلتون – ريتز.

حين طرح بوش سؤال: كيف هو الوضع الإجمالي؟"، تذكر بريمر كتابه وقال: "أنا متفائل لسببين، يا سيادة الرئيس"، وقدم تفسيراً بدا مقتبساً من **الموسوعة البريطانية**. "أولاً، يتوفر العراق على ثروات ممتازة، وفرة من الماء، والأرض خصبة إضافة إلى الاحتياطيات النفطية الهائلة. والعراقيون شعب نشيط واسع الحيلة".

غير أن شعب العراق "محطم نفسياً، في الوقت نفسه بعد انسحاقه الطويل تحت حكم صدام" أضاف بريمر.

دون الإتيان على ذكر خطة اجتثاث البعث أو تسريح الجيش الذي أبقى مئات آلاف العراقيين دون عمل، قال بريمر للرئيس: "مشكلتنا الأكثر إلحاحاً هي البطالة. نعتقد

أنها تصل إلى نحو 50 بالمئة، ولكن أحداً لا يعرف الواقع. كذلك يتمتع العراق بكتلة سكانية فتية، إذ نصف السكان هم دون التاسعة عشرة. إنها تركيبة متفجرة".

في إحدى مناقشاته مع رمسفلد وبريمر كان بوش قد سأل الرجلين صراحةً وعلى نحوٍ مباشر عن المسؤول عن العثور على أسلحة الدمار الشامل. عن أولئك المكلفين بالمهمة بوصفها رسالتهم الرئيسة. نظراً لأن ذلك كان أحد الأسباب الرئيسة للحرب ولأن أشياء كثيرة كانت ستتوقف على المحصلة.

أوحى بريمر بأن تلك كانت مسؤولية رمسفلد.

قال رمسفلد إن بريمر هو المسؤول.

كاد بوش أن ينفجر. قال إن من شأن المهمة أن تحال على شخص آخر. أريد أن يكون هناك شخص مسؤول، شخص تكون العملية رسالته الوحيدة في الحياة. طالما أن وكالة الاستخبارات المركزية أصرت على وجود أسلحة دمار شامل في العراق، فإن الوكالة تستطيع أن تعثر على الأسلحة. وهكذا فقد قررت الإدارة، بعد مرور شهرين ونصف على الانخراط في أتون الحرب، أن تولي بعض الاهتمام لعملية البحث.

على الرغم من أن بريمر كان مكلَّفاً رسمياً بأن يرفع تقاريره إلى بوش عبر رمسفلد، فإن رايس استطاعت أن ترى أن البنتاغون لم يكن متمتعاً بذلك القدر الكبير من التأثير، بله التحكم، في بريمر.

قالت لفرانك ملر: "ليس الأمر على ما يرام". وفرانك هذا كان عنصر محلس الأمن القومي الأول في عملية الإعداد للغزو، مع فريق التوجيه التنفيذي، وكانت الآن تريد أن تقلص دوره في حقبة ما بعد الحرب. أمرته: "بادر إلى إعادة تشكيل الفريق".